مغامَرة تاج الزّمُرُّد

مغامرات شيرلوك هولمز

مغامَـرة

تاج الزّمُرُّد

تأليف

آرثر كونان دويل

ترجمة

محمد يحيى عبدالكريم

أرثر كونان دويل

ولد آرثر كونان دويل لأسرة متوسطة الحال في إدنبرة في إسكتلندا في الثاني والعشرين من أيار (مايو) عام ١٨٥٩م، والتحق بكلية الطب فيها وعمره سبعة عشر عاماً وكان من مدرسيه في الكلية الجراح الشهير الدكتور جوزيف في، وهو الذي أوحى إليه شخصية شيرلوك هولمز التي ابتكرها بعد ذلك.

في عام ١٨٨٢م حصل دويل على شهادة الطب من جامعة إدنبرة، وكان يحلم بأن يصبح جراحاً وخبيراً في التشخيص مثل الدكتور بل، ولكن قلة المال اضطرته إلى العمل طبيباً على سفينة لصيد الحيتان.

بعد ذلك مارس مهنته في منزل صغير استأجره في بعض ضواحي بورتسماوث، ولكن عدد المرضى كان قليلاً فاتجه إلى الكتابة أملا في الحصول على بعض الدخل الإضافي. وقد كتب بعضاً من قصص

المغامرات لمجلات الفتيان، ولكن أجره عنها كان ضئيلاً، وفشلت روايته الأولى في العثور على ناشر.

وفي غمرة إحساسه باليأس فكر في أساليب الدكتور بل في التشخيص وقرر أن يستخدمها في قصة يكون بطلها واحداً من رجال التحري؛ وهكذا ولد شيرلوك هولمز في رواية (دراسة قرمزية) التي نشرها دويل سنة ١٨٨٧م.

لقد ابتكر دويل شخصية تفيض بالحياة، حتى إن الجماهير رفضت أن تصدق أنها شخصية خيالية! وكان المؤلف يتلقى بانتظام خطابات موجهة إلى هولمز تطلب مساعدته في حل قضايا حقيقية، وبعض هذه القضايا أدى إلى كشف قدرة دويل نفسه.

كانت إحدى هذه الحوادث تتعلق برجل سحب كل أمواله من البنك وحجز غرفة في أحد فنادق لندن، ثم حضر حفلاً عاد بعده إلى فندقه حيث أبدل ملابسه ثم اختفى. وعجز رجال الشرطة عن اكتشاف مكانه، وخشيت أسرته أن يكون قد أصيب بسوء، لكن دويل

حل المشكلة سريعاً إذ قال:

(سوف تجدون رجلكم في غلاسكو أو إدنبرة، وقد ذهب هناك بمحض إرادته. إن سحب كل أمواله من البنك يشير إلى الهروب المتعمد، والحفل الذي كان فيه ينتهي في الساعة الحادية عشرة، ولما كان قد أبدل ملابسه بعد عودته فلا بد أنه كان ينوي القيام برحلة، والقطارات السريعة المتجهة إلى إسكتلندا تغادر محطة كينغز كروس عند منتصف الليل)- وقد عثر على الرجل في إدنبرة فعلاً!

كان آرثر كونان دويل رياضياً متعدد المواهب، فقد مارس الملاكمة وكرة القدم والبولينغ والكريكت، وكان خطيباً مفوهاً ومحاضراً ناجحاً ومحاوراً بارعاً، وقد ذاعت آراؤه وأفكاره المتنوعة في الطب والعلم والأدب والسياسة والاجتماع.

وفي عام ١٩٠٠م تطوع الدكتور دويل في حرب البوير (في جنوب إفريقيا) وصار كبيراً للجراحين في واحد من المستشفيات الميدانية، وفي نهاية الحرب منح وسام الفروسية ولقب (سير) تقديراً لخدماته. وقد

أصدر بعد عودته إلى إنجلترا كتاباً مهماً عن هذه الحرب.

وتوفى السير آرثر كونان دويل في السابع من تموز (يوليو) عام ١٩٣٠م بعد أن بلغ الحادية والسبعين، بعد ثلاث سنوات من كتابة آخر قصصه عن شيرلوك هولمز وبعد مرور أكثر من أربعين عاماً على أول ظهور علني لهذه الشخصية الخارقة.

شيرلوك هولمز وعالمه

ربما كان شيرلوك هولمز أشهر الشخصيات الخيالية في التاريخ، بل إنه يكاد يفوق في شهرته كثيراً من مشاهير العالم الحقيقيين. وقد بلغ من شهرة هذه الشخصية أنها فاقت شهرة مبتكرها، آرثر كونان دويل.

استوحى دويل شخصية هولمز وصفاته من الدكتور جوزيف بل الذي درسه في كلية الطب. كان الدكتور بل يتمتع بموهبة عظيمة في الملاحظة وأسلوب التفكير المنطقي، وكان يثير اهتمام تلاميذه بقدراته الاستنتاجية الفذة، فهو لم يكن ماهراً فقط في التعرف على علل المرضى، بل وفي معرفة شخصياتهم ومهنهم وتفصيلات خفية عنهم أيضاً. كان يقول لأحد المرضى مثلاً:

(أنت ضابط سرح من الجيش حديثاً، وقد عدت لتوك من بربادوس، وأنت تعاني من داء الفيل). وبعد أن تسيطر الدهشة على

المريض والطلبة على السواء يشرح الدكتور بل الأمر قائلاً إن الرجل يبدو جندياً من هيئته، وعدم خلع قبعته عند دخوله الغرفة يدل على أنه ترك الخدمة حديثاً، وهو يملك مظاهر السلطة كتلك التي توجد لدى الضباط، وتدل بشرته التي لوحتها الشمس والمرض الذي يشكو منه على أنه جاء من منطقة استوائية، وقد جاء من بربادوس لأن هذا المرض بالذات منتشر هناك!

(ولد) شيرلوك هولمز في عالمه الخيالي- سنة ١٨٥٤م وحصل على شهادة جامعية لم يحددها دويل، ثم احترف مهنة (محقق خاص) منذ نحو سنة ١٨٧٨م، وكان يقيم في شارع في العاصمة البريطانية لندن، ورقم البيت الذي يقيم فيه هو (٢٢١ ب). وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذا العنوان (٢٢١ ب شارع بيكر) هو أشهر عنوان في العصر الحديث! وقد برع هولمز في كشف الجرائم وحل الألغاز الغامضة بفضل دقة ملاحظته وقدرته العظيمة على الاستنتاج والتحليل المنطقي، بالإضافة إلى غزارة معلوماته واطلاعه الواسع على العلوم المختلفة.

أما الدكتور واطسون، صديق هولمز ومساعده الذي يرافقه في

قصصه كلها، فلا يكاد يقل شهرة عن هولمز نفسه، وهو راوية القصص الذي يقصها علينا (كما فعل بعد ذلك هيستنغز في كثير من مغامرات بوارو). وهو طبيب ولد نحو سنة ١٨٥٢م وتخرج طبيباً سنة ١٨٧٨م، ثم انضم إلى الجيش البريطاني، ثم عاد إلى بلده وتقاعد من الجيش بعدما أصيب في إحدى المعارك، وعندها تعرف إلى شيرلوك هولمز في مختبر الكيمياء بمستشفى ستامفورد في أوائل سنة ١٨٨١م، ولم يفترق الصديقان بعد ذلك قط. وقد تزوج الدكتور واطسون في أواخر سنة ١٨٨٦م، لكن دويل لم يشأ أن يعرفنا إلى زوجته ولم يذكر لنا اسمها.

في قصة (المشكلة الأخيرة) التي نشرت في نهاية عام ١٨٩٣م (قتل) دويل بطله شيرلوك هولمز، لكنه واجه احتجاجاً عارماً من جماهير القراء فقرر إعادة إحياء هذه الشخصية الخيالية من جديد، فعاد هولمز إلى الظهور مرة أخرى في أواخر عام ١٩٠٣م ليستأنف حل القضايا الغامضة.

قصص شيرلوك هولمز

أول قصة نشرها دويل كانت في عام ١٨٧٩م، وهي قصة قصيرة عنوانها (إفادة السيد جفسون)، أما أول رواية نشرها من بطولة شيرلوك هولمز فكانت (دراسة قرمزية)، وقد صدرت في بريطانيا عام ١٨٨٧م فلم يكد يحس بها أحد، لكنها حققت نجاحاً معتدلاً في الولايات المتحدة. وبعدها نشر رواية طويلة ثانية من بطولة شيرلوك هولمز، وهي رواية (علامة الأربعة) التي نشرت عام ١٨٩٠م فوطدت شخصية هولمز في بريطانيا وأمريكا على السواء.

وفي السنة التالية (١٨٩١م) بدأ نشر مجموعة (مغامرات شيرلوك هولمز) في حلقات شهرية في مجلة (ستراند)، بدءاً بقصة (فضيحة في بوهيميا) التي ظهرت في عدد تموز (يوليو)، فقوبلت هذه القصص بنجاح كبير غير مسبوق في تاريخ الصحافة البريطانية، ودخلت هذه الشخصية الخيالية التاريخ من بابه الواسع، حيث صارت حديث

المجتمع وشغل الناس في أنحاء البلاد.

وقد بلغ عدد قصص هذه السلسلة اثنتي عشرة نشر آخرها في عدد حزيران (يونيو) من عام ١٨٩٢م. ثم ظهرت سلسلة (ذكريات شيرلوك هولمز) التي نشرت في اثنتي عشرة حلقة أيضاً صدر أولها في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٩٢م، ويبدو أن دويل بدأ يمل عندئذ من كتابة قصص شيرلوك هولمز، ولذلك (قتله) في آخر قصة من هذه المجموعة في معركة مع البروفسور موريارتي الشرير عند شلالات رايشنباخ في سويسرا! وقد نشرت هذه القصة (وعنوانها (المشكلة الأخيرة». في كانون الأول (ديسمبر) عام ١٨٩٣م.

وثار جمهور دويل غضباً وانهالت عليه ألوف الخطابات تستنكر عمله وخسرت المجلة عشرين الف اشتراك، ولكن دويل تمسك بموقفه، فقد شعر بأن شيرلوك هولمز يحول بينه وبين أعمال أكثر أهمية. ثم وافق أخيراً بسبب الإلحاح الذي لم ينقطع على (بعث) شيرلوك هولمز، فأعاده إلى العمل في قصة (مغامرة المنزل الخالي) التي نشرت في مجلة (ستراند) في تشرين الأول (أكتوبر) عام ١٩٠٣م.

وعاد شيرلوك هولمز إلى الأضواء من جديد؛ فقد تبين أنه لم يقتل على الإطلاق، وفي تلك القصة (المنزل الخالي) شرح دويل كيف نجا هولمز من الموت بأعجوبة، ثم شق طريقه بعد ذلك إلى بلاد التبت لمساعدة اللاما الكبير، ثم عاد إلى لندن ليحقق في وفاة ابن أحد اللوردات بطريقة غامضة. وقد أثارت عودة شيرلوك هولمز في مجلة (ستراند) في بريطانيا ومجلة (كوليرز) في أمريكا حماسة بالغة في نفوس عشاقه المخلصين وحققت للمجلتين مبيعات غير مسبوقة. واستمر نشر سلسلة (عودة شيرلوك هولمز) (التي بلغ عدد حلقاتها ثلاث عشرة حلقة) حتى كانون الأول (ديسمبر) ١٩٠٤م.

وكان دويل قد نشر قبل هذه السلسلة رواية شيرلوك هولمز الطويلة الثالثة (كلب عائلة باسكرفيل)، وقد استمر نشر حلقاتها من آب (أغسطس) ١٩٠١م إلى نيسان (أبريل) ١٩٠٢م، وهي أشهر روايات شيرلوك هولمز على الإطلاق.

وبعدها صدرت سلسلة (الظهور الأخير) التي تضم سبع قصص نشرت على حلقات متباعدة بين أيلول (سبتمبر) ١٩٠٨م وكانون الأول (ديسمبر) ١٩١٣م، ثم الرواية الطويلة الرابعة (وادي

الرعب) (٩/ ١٩١٤م-٥/ ١٩١٥م)، وهي أعظم روايات شيرلوك هولمز كما يقول النقاد. وأخيراً سلسلة (قضايا شيرلوك هولمز) (١٠/ ١٩٢١م-٤/ ١٩٢٧م) التي نشرت آخر حلقاتها بعد أربعين سنة تماماً من صدور أولى روايات شيرلوك هولمز.

ولم تقتصر مؤلفات آرثر كونان دويل على قصص وروايات شيرلوك هولمز، فقد ألف كتباً كثيرة غيرها، منها روايات تاريخية ورومانسية ومسرحيات، بالإضافة إلى عدد كبير من الكتب والدراسات الغير الروائية.

والحقيقة أنه كان كاتباً غزير الإنتاج، فقد بلغ ما تركه من المؤلفات نحو مئة وستين، منها ستون من قصص وروايات شيرلوك هولمز، وخمس روايات من بطولة شخصية خيالية أخرى ابتكرها هي شخصية عالم اسمه البروفيسور تشالنجر، وأشهر هذه الروايات هي (العالم المفقود)، ونحو أربعين رواية من الروايات المتنوعة، بالإضافة إلى عشر مسرحيات، وأربعة دواوين شعرية، وأكثر من خمسين كتاباً وكتيباً في الشؤون الاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكتاب ذكرياته الجميل الذي سماه (ذكريات ومغامرات).

رسام شيرلوك هولمز الأشهر

تعاقب على رسم شخصية شيرلوك هولمز عدد من الرسامين، لكن أشهرهم وأعظمهم- بلا خلاف- كان الرسام الإنجليزي سدني باجيت الذي صاحب روايات هولمز وقصصه منذ ولادتها المبكرة، وهو الذي بلور صورة شيرلوك هولمز وطبعها في عيون القراء على مدار السنين.

والغريب أن المجلة لم تسع ابتداءً خلف سدني باجيت بل خلف أخيه الأكبر ولتر الذي كان قد نجح في رسم رسومات قصتي (جزيرة الكنز) و (روبنسون كروزو)، لكن خطأ في الاتصالات تسبب في دعوة سدني، الأخ الأصغر، لرسم صور القصص الست الأولى التي نشرتها مجلة (ستراند) في النصف الثاني من عام ١٨٩١م، وعلى إثر النجاح الهائل الذي لقيته هذه القصص مع رسوماتها التصق سدني باجيت بآرثر كونان دويل لتصبح رسومات هذا بنفس أهمية كتابة ذاك في

عالم شيرلوك هولمز. وقد استمر سدني باجيت برسم الصور لقصص وروايات شيرلوك هولمز حتى وفاته عام ١٩٠٨م، وبلغ عدد ما رسمه خلال هذه السنوات ٣٥٧ رسماً زينت ٣٨ قصة.

وحين توفي سدني استعانت مجلة (ستراند) برسامين آخرين، فشارك في رسم السلسلة الجديدة (الظهور الأخير) كل من ولتر باجيت، الأخ الأكبر لسدني، وآرثر تويدل وجلبرت هاليدي وأليك بول وجوزف سمبسون. أما السلسلة الأخيرة- وهي (قضايا شيرلوك هولمز)- فقد رسمها ثلاثة من الرسامين هم أ. جلبرت وهاوارد إلكوك وفرانك وايلز.

هذا في نسخة هولمز البريطانية التي نشرتها مجلة (ستراند)، أما في أمريكا فقد استعانت مجلة (كوليرز) بعدد من الرسامين أشهرهم فردريك دور ستيل، ومنهم وهـ هايد وجوزف فريدرتش ورتشارد غوتشمت.

تـاج الزّمُـرُّد

قلت ذات صباح وأنا أطل من نافذتنا إلى الشارع:

أترى ذلك الرجل المجنون الذي يسير في الشارع يا هولمز؟

إنه لمن المحزن أن يسمح له أقاربه بالخروج وحيدًا.

قام صديقي عن مقعده بتكاسل ووقف خلفي ويداه في جيبي ردائه لينظر من فوق كتفي.

كان ذلك في صباح أحد الأيام من شهر شباط (فبراير)، وكان الجو صافيًا وقد تلألأ الثلج- الذي سقط بغزارة في الليلة السابقة- تحت ضوء شمس الشتاء، وكانت حركة المرور قد شقّت شريطًا بنيًّا في وسط شارع بيكر بينما بقي الثلج مكدسًا على حاله على جانبَي الطريق وعند حوافّ ممرات المشاة، وبالرغم من تنظيف الرصيف الرمادي إلا أنه كان ما يزال زلقًا بشكل خطير، ولذلك فقد كان عدد المارة أقل من المعتاد في مثل ذلك الوقت، حتى إنه لم يكن هناك أيّ قادم من جهة

محطة متروبوليتان سوى ذلك الرجل الذي لفت انتباهي بتصرفاته الغريبة.

كان في نحو الخمسين من العمر، طويل القامة ضخم الجثة ذا وجه مميّز وهيئة مهيمنة. وبالرغم من كآبة ملابسه إلا أنها كانت أنيقة، فقد ارتدى بنطالًا رمادي اللون جيد التفصيل وسترة سوداء طويلة وقبعة لامعة وانتعل حذاء بنيًّا أنيقًا.

وقد وجدت بين تصرفاته وبين وقار ملامحه ووجاهة ملابسه تناقضًا غريبًا، فقد كان يجري بشدّة ويثب وثبات قصيرة من حين إلى آخر، ويحرك يديه إلى أعلى وأسفل ويهزّ رأسه وهو يجري وقد التوَت قسمات وجهه بطريقة غريبة.

تساءلت قائلًا:

ما خطب هذا الرجل؟ إنه ينظر إلى أرقام المنازل!

فقال هولمز وهو يفرك يديه: أظن أنه قادم إلى هذا المنزل.

- إلى هنا؟!

- نعم؛ أعني أنه جاء لاستشارتي في عمل، فأنا أعرف مثل هذه الأعراض... ها، ألم أقل لك؟

فيما كان هولمز يتكلم اندفع الرجل إلى باب منزلنا وهو يلهث بشدة وأخذ يدق الجرس حتى ضجّ المكان كله بالرنين، وبعد دقائق قليلة كان الرجل في الغرفة وهو لا يزال يلهث ويشير بيديه، وعلى الفور حوّلت نظراته الحزينة اليائسة بسماتنا إلى شعور بالرعب والشفقة.

وقد ظلّ لبعض الوقت غير قادر على الكلام وأخذ يهزّ جسده ويشدّ شعره كشخص يقف على شفا الجنون، وفجأة هبّ واقفًا على قدميه وأخذ يضرب رأسه بالجدار بعنف جعلنا نندفع نحوه ونجذبه إلى وسط الغرفة. ودفعه هولمز إلى الجلوس على كرسي مريح، ثم جلس بجواره وهو يربّت على يده ويحدثه بنبرة مريحة مُطَمئنة يعرف جيدًا كيف يستخدمها، فقال:

لقد جئت إليّ هنا لتروي قصتك، أليس كذلك؟ ولكنك الآن متعب بسبب تعجّلك، ولذلك أرجو أن تنتظر حتى تستردّ أنفاسك، وعندها سيسعدني جدًّا أن أبحث أية مشكلة صغيرة قد تقولها لي.

جلس الرجل لدقيقة أو أكثر وهو يلهث ويحاول مغالبة مشاعره، وبعد ذلك مسح بمنديله على حاجبيه وزمّ شفتيه، ثم التفت نحونا وقال: لا شك أنكم تظنون أنني مجنون.

فأجابه هولمز قائلًا: بل أرى أن لديك مشكلة رهيبة.

– يعلم الله أن لدي مشكلة تكاد تفقدني صوابي من هول المفاجأة والفظاعة. لو توقف الأمر على الخزي العلني لاستطعت مواجهته، بالرغم من أنني رجل لم تَشُب سمعتَه شائبةٌ حتى الآن، كما أن المآسي الشخصية هي قدَر كل إنسان، ولكن أن يجتمع الأمران معًا وبهذا الشكل الرهيب ففي هذا ما يكفي لزعزعة كياني.

وبالإضافة إلى ذلك فالأمر لا يخصني وحدي، فأنبل شخص على وجه الأرض قد يعاني هو الآخر ما لم نكتشف طريقة للخروج من هذه المسألة الرهيبة.

قال هولمز:

أرجو أن تتمالك نفسك يا سيدي، ولتخبرني بوضوح من أنت وما الذي حلّ بك.

فأجاب زائرنا قائلًا:

قد يكون اسمي مألوفًا لك، فأنا ألكساندر هولدر من شركة هولدر وستيفنسون للأعمال المصرفية.

كان الاسم معروفًا لنا بالفعل، فهو الشريك الأكبر لثاني أضخم

مؤسسة مصرفية خاصة في مدينة لندن، فما الذي يمكن أن يكون قد حدث إذن ليصل بواحد من صفوة المواطنين في لندن إلى مثل هذه الحالة المثيرة للشفقة؟

انتظرنا بفضول حتى استطاع بعد مجهود مضاعف أن يتمالك نفسه ليروي قصته، فقال:

أشعر أن للوقت أهمية، ولهذا أسرعت إليك عندما أشار مفتش الشرطة إلى ضرورة طلب تعاونك، فجئت إلى شارع بيكر في قطار الأنفاق ثم هرعت إلى هنا على الأقدام لأن عربات الأجرة كانت تسير ببطء بسبب هذا الثلج، ولذلك كنت غير قادر على التقاط أنفاسي حيث إنني لا أمارس الرياضة إلا فيما ندر. على أية حال أشعر الآن بتحسن، وسأحاول أن أخبرك بالوقائع بإيجاز ولكن بوضوح.

إن من المعروف لكما بالطبع أن العمل المصرفي الناجح يعتمد على قدرتنا على توظيف مواردنا المالية في استثمارات مربحة، كما يعتمد على توسيع دائرة معارفنا وزيادة عدد المودعين.

والقروض هي إحدى أكثر الوسائل ربحًا حين تكون الضمانات موثوقة، وقد قمنا بالكثير من هذا النوع في السنوات القليلة الماضية

فمنحنا قروضًا بمبالغ ضخمة للعديد من العائلات النبيلة بضمان لوحاتها أو مقتنياتها الثمينة الأخرى.

وبالأمس كنت جالسًا في مكتبي في المصرف عندما أحضر لي أحد الموظفين بطاقة تعريف، وقد جفلت حين نظرت إلى الاسم، فهو لم يكن إلا... حسنًا، ربما كان من الأفضل أن لا أقول لك أكثر من أنه اسم معروف في العالم كله، وهو واحد من أرفع وأنبل وأكثر الأسماء سموًّا في إنجلترا.

وقد تأثرت بتشريفه لي وحاولت أن أخبره بذلك لدى دخوله، ولكنه تطرّق إلى العمل في الحال وبدا كمن يرغب في الانتهاء بسرعة من مهمة كريهة، فقال: لقد أخبروني أن من عادتك إقراض المال يا سيد هولدر.

فأجبته قائلًا:

تقوم الشركة بذلك حين تكون الضمانات جيدة.

- من الضروري أن أحصل على خمسين ألف جنيه في الحال. أستطيع بالطبع أن أقترض عشرة أمثال هذا المبلغ التافه من أصدقائي، ولكنني أفضّل أن يكون الأمر مجرد عمل وأن أقوم به بنفسي، ويمكنك

أن تفهم أنّ من غير الحكمة لشخص في مثل مركزي أن يضع نفسه في موضع المَدين لشخص آخر.

فسألته قائلًا:

هل يمكنني أن أسأل عن المدة التي ستحتاج هذا المبلغ خلالها؟

قال: سأحصل على مبلغ كبير يوم الإثنين المقبل، وعندها سأدفع لك القرض بالإضافة إلى الفائدة التي ستقررها، ولكن من الضروري جدًّا أن أحصل على المال في الحال.

فقلت: كان سيسعدني أن أقرضك المال من جيبي الخاص بلا مفاوضة لولا أنه أكثر من إمكانياتي، وحين أصنع ذلك من حساب الشركة فيجب أن أصرّ - من باب الإنصاف لشريكي - على اتخاذ كافة الاحتياطات.

فقال وهو يرفع حقيبة سوداء مربعة الشكل كان قد وضعها بجانب كرسيه:

وأنا أفضّل أن يتم الأمر على هذا النحو. لقد سمعت عن تاج الزُّمُرُّد بالطبع، أليس كذلك؟

فقلت: إنه واحد من أثمن الممتلكات العامة للإمبراطورية.

– تمامًا.

ثم فتح الحقيبة التي وُضعت في داخلها قطعة الجواهر الرائعة تلك على فَرشة من المخمل الأحمر الناعم وقال: في التاج تسع وثلاثون زُمُرّدة، وهو يكاد لا يُقدَّر بثمن.

إن أقل تقدير قد يوضع لثمن التاج سيبلغ ضعف المبلغ الذي أطلبه، وأنا على استعداد لأن أتركه ضمانًا معك.

أمسكت بالحقيبة الثمينة بين يديّ ونظرت إليها ثم إلى عميلي الشهير بشيء من الحيرة، فسألني قائلًا: هل تشك في قيمتها؟

– أبدًا، ولكني أتساءل فقط عن ...

– عن مدى سلامة قراري بتركها معك؟

يمكنك أن تطمئن، فلو لم أكن واثقًا تمام الثقة من أنني سأتمكّن من استرجاعها خلال أربعة أيام لما تركتها أبدًا، ولكنه إجراء شكلي فقط. والآن هل سيكون الضمان كافيًا؟

– إنه يكفي ويزيد.

– لعلك تدرك يا سيد هولدر أنني أقدّم لك دليلًا قويًّا على ثقتي

بك، وهي ثقة قامت على ما سمعته عنك، ولذلك أعتمد عليك ليس فقط لكي تتكتم على الأمر وتُحجم عن مناقشته مع أحد بل أيضًا لكي تتخذ كل الاحتياطات الممكنة للمحافظة على التاج، فلست بحاجة لإخبارك عن مدى فداحة الفضيحة التي قد تقع إذا مسّه أي أذى؛ إن أي ضرر قد يصيبه سيكون بخطورة فقدانه تمامًا، فليس في العالم من أحجار الزمرّد ما يضاهي أحجار التاج هذه.

على أية حال سأتركه معك وأنا مطمئن تمامًا، وسوف أحضر بنفسي لاستلامه يوم الإثنين المقبل.

حين رأيت عميلي يتوق إلى المغادرة طلبت الـصرّاف وأمرته بإحضار المبلغ. وعندما خلوت إلى نفسي ورأيت الحقيبة الثمينة أمامي على الطاولة لم أستطع إلا أن أفكر- ببعض الخوف- في مدى فداحة المسؤولية الملقاة على عاتقي، فلا شك في الفضيحة الرهيبة التي ستنشأ لو حدث للتاج أي مكروه لأنه كنز قومي، حتى لقد بدأت أشعر بالفعل بالندم لأنني وافقت على تحمل هذه المسؤولية، ولكن كان أوان تغيير ما حدث قد فات، ولذلك أغلقت عليه خزنتي الخاصة والتفتّ إلى عملي مرة أخرى.

وعندما حلّ المساء شعرت أن من الحماقة أن أترك كنزًا ثمينًا بهذا القيمة في المكتب وأنصرف، فخزائن المصرفيين قد نُهبت من قبل ولا يوجد ما يضمن عدم حدوث ذلك لخزنتي، فقررت حمل الحقيبة طَوال الأيام الثلاثة التالية في ذهابي وإيابي، وبذلك أضمن أن لا تكون بعيدة عني أبدًا.

وهكذا طلبت عربة أجرة واتجهت إلى منزلي في ستريتهام وأنا أحمل الجواهر الثمينة معي، ولكنني لم أتنفس الصعداء إلا بعد أن أخذتها إلى الدور العلوي وأغلقت عليها درج مكتبي في غرفة ملابسي.

وسأخبرك الآن- يا سيد هولمز- بنبذة عن الأفراد المقيمين في منزلي لأنني أودّ أن تحيط بالموقف من جميع جوانبه؛ السائس وخادمي الخاص يقيمان خارج المنزل ولذلك يمكن أن نستبعدهما، وفي المنزل ثلاث خادمات يعملن عندي منذ عدة سنوات وإخلاصهن التام غير قابل للشك، وخادمة أخرى اسمها لوسي بار لم تلتحق بخدمتي إلا منذ شهور قليلة، وقد جاءت بتوصية ممتازة وأنا راضٍ تمامًا عن عملها، ولكنها فتاة جميلة جدًّا وتجذب المعجبين الذين يتسكعون في المكان من حين إلى آخر، هذا هو مأخذنا الوحيد عليها ولكننا نعتقد أنها فتاة جيدة

جدًّا من جميع النواحي.

أما عائلتي فهي صغيرة جدًّا بحيث لن أستغرق كثيرًا من الوقت في وصفها لك، فأنا أرمل وابني الوحيد اسمه آرثر، وهو يمثّل خيبة أمل لي يا سيد هولمز، خيبة أمل موجعة، وإن كان اللوم يقع عليّ بلا شك؛ فالناس يقولون لي إنني دلّلته، ولعلي صنعت ذلك بالفعل، فعندنا توفيت زوجتي العزيزة شعرت بأنه لم يعد لي أحد غيره لأُغدق عليه كل حبي، حتى إنني لم أكن أحتمل أن تغيب البسمة عن وجهه ولو للحظة، ولم أرفض له أمنيّة قط. ربما كان من الأفضل لو كنت أكثر صرامة ولكنني لم أقصد إلا الخير.

وكنت أنوي أن يخلفني في عملي بطبيعة الحال، ولكن لم أجد لديه نزعة للعمل بل وجدته أهوج صعب المراس. وفي الحقيقة لم أستطع أن أأتمنه على مبالغ كبيرة من المال؛ فقد التحق بعضوية أحد النوادي الأرستقراطية عندما كان أصغر سنًّا، وهناك تمكّن بسرعة وبفضل شخصيته الجذابة من عقد صداقة مع عدة رجال أثرياء ذوي عادات مُكلِّفة، فتعلم أن يلعب الورق كثيرًا وأن ينفق المال على حلبة السباق حتى إنه أتاني مرارًا وتكرارًا ليتوسل إليّ أن أعطيه سُلفة على مخصّصاته

المالية حتى يستطيع تسديد ديون الشرف! وقد حاول أكثر من مرة أن يبتعد عن تلك المجموعة التي كان يرافقها، ولكن تأثير صديقه السير جورج بيرنويل كان كافيًا ليعيده إليهم ثانية في كل مرة.

وفي الحقيقة لم تدهشني قدرة السير جورج بيرنويل على التأثير فيه حيث إنه أحضره مرارًا إلى المنزل وبالكاد استطعت منع نفسي من الانجذاب إلى شخصيته، فهو أكبر سنًّا من آرثر، كما أنه رجل شديد الحنكة ذهب إلى كل مكان ورأى كل شيء، وهو متحدث بارع بالإضافة إلى حسن طلعته، وبالرغم من ذلك كله فحين أفكر فيه بحياد وأنا بعيد عن حضوره الساحر تقنعني السخرية التي لمستها في حديثه والنظرة التي لمحتها في عينيه بأنه شخص غير جدير بالثقة. هذا هو رأيي، كما أنه رأي صغيرتي ماري التي تتمتع بفراسة المرأة في التحليل السريع للشخصية.

لم يبقَ إلا أن أخبركما عن ماري، وهي ابنة شقيقي التي كفلتها واعتبرتها ابنتي عندما تُوفي أخي منذ خمس سنوات وتركها وحيدة في هذا العالم، وهي تنشر الدفء والنور في منزلي، فهي جميلة ومحبّة ورقيقة، بالإضافة إلى أنها تدير المنزل وشؤونه ببراعة وتتمتع بكل ما يميز المرأة من الحنان والوداعة ورقة القلب. إنها ساعدي الأيمن ولا أعرف ما

الذي يمكنني فعله دونها، والأمر الوحيد الذي خالفَت فيه رغبتي هو رفضها ابني حين طلبها للزواج مرتين، رغم أنه يحبها بإخلاص. أعتقد أنها الوحيدة القادرة على ردّه إلى الطريق الصحيح وأن ذلك الزواج قد يغيّر حياته بأكملها، ولكن لقد فات الأوان للأسف... فات الأوان.

ها أنت- يا سيد هولمز- قد عرفت الأفراد المقيمين في منزلي، وسأخبرك الآن بما تبقى من قصة مأساتي.

في تلك الليلة، وعندما كنا نتناول القهوة في غرفة الرسم بعد العشاء، أخبرت آرثر وماري بما حدث معي وبأمر الكنز الثمين الموجود في منزلنا، ولكني كتمت اسم عميلي. وبالرغم من أنني متأكد من أن لوسي بار كانت قد غادرت الغرفة بعد أن أحضرت القهوة إلا أنني لا أجزم بأن الباب كان مغلقًا، وقد أبدى كلّ من آرثر وماري اهتمامهما بالتاج الشهير ورغبتهما في رؤيته، ولكنني فضلت أن أتركه حيث وضعته. وسألني آرثر قائلًا: أين وضعته؟

قلت: في درج مكتبي الخاص.

قال: حسنًا، فلنَدْعُ الله أن لا يتم السطو على المنزل في أثناء الليل.

فأجبته قائلًا:

لقد أحكمت الإغلاق عليه.

– آه، إن أي مفتاح قديم قد يناسب ذلك المكتب، فعندما كنت صغيرًا فتحته بمفتاح خزانة الغرفة الصغيرة.

لم أُعِر كلامَه اهتمامًا لأنه غالبًا ما يتحدث بطريقة هوجاء، ولكنه تبعني إلى غرفتي في تلك الليلة تكسو وجهه علامات التجهّم الشديد وقال وهو ينظر إلى الأرض:

هل يمكن أن تعطيني مئتَي جنيه يا أبي؟

فأجبته بحدة:

لا، لن أستطيع؛ فقد كنت كريمًا معك إلى حد كبير فيما يختص بالمال.

فقال: لقد كنت لطيفًا جدًّا معي، ولكن يجب أن أحصل على هذا المال وإلا فلن أستطيع أن أذهب إلى النادي ثانية.

فصِحت قائلًا:

هذا سيكون أمرًا جيدًا جدًّا.

– أجل، ولكنك لن تجبرني على تركه وأنا موصوم بعدم النزاهة. لن أتحمل هذا العار، ولذلك يجب عليّ تدبير المال بأية طريقة، وإذا لم توفره

لي فسوف يتوجّب عليّ السعي لتوفيره بوسائل أخرى.

فشعرت بغضب شديد لأنها كانت المرة الثالثة التي يطلب فيها المال خلال الشهر، فصِحت قائلًا:

لن تحصل على أي نقود مني.

وعندها انحنى احترامًا وغادر الغرفة دون أن ينطق بكلمة أخرى. وبعد مغادرته الغرفة قمت بفتح درج مكتبي لأطمئن إلى أن كنزي بأمان، ومن ثمّ أغلقته ثانية، وبعد ذلك بدأت جولة لتفقد المنزل والتأكد من تأمينه، وهي مهمة كنت أتركها في العادة لماري ولكنني رأيت من الأنسب أن أقوم بها بنفسي في تلك الليلة.

وعندما نزلت الدرَج رأيت ماري تقف عند النافذة الجانبية للقاعة وقد قامت بإحكام إغلاقها عندما اقتربت، وقالت وقد بدا عليها بعض الانزعاج: أخبرني يا أبي، هل أعطيت الخادمة لوسي إذنًا لتخرج الليلة؟

- بالطبع لا.

- لقد عادت لتوّها من الباب الخلفي، ولست أشك في أنها كانت عند البوّابة الجانبية لترى أحدهم.

هذا تصرف أخرق ويجب أن يتوقف.

– يجب أن تتحدثي إليها في الصباح، أو سأتحدث أنا إليها إذا كان هذا ما تفضّلينه. هل أنت متأكدة من أن كل شيء مغلق بإحكام؟

– تمام التأكد يا أبي.

– تصبحين على خير إذن.

ثم قبّلتها وصعدت إلى غرفتي ثانية حيث غرقت في النوم سريعًا.

إنني أحاول إخبارك– يا سيد هولمز– بكل شيء قد يكون له علاقة بالقضية، وأرجو أن تسألني عن أي نقطة لم أوضحها جيدًا.

فقال هولمز:

بل إن روايتك واضحة تمامًا.

لقد وصلت الآن إلى الجزء الذي أتمنى أن يكون في غاية الوضوح. إن نومي ليس ثقيلًا، ولا بد أن القلق قد زاد من خفّته، ففي نحو الساعة الثانية صباحًا أيقظني صوت صادر من المنزل، وبالرغم من أن الصوت كان قد توقف قبل أن أستيقظ تمامًا إلا أنني أحسست وكأنه صوت نافذة تُغلق بهدوء في مكان ما في المنزل.

فاستلقيت مُنصتًا بانتباه شديد، وفجأة زاد خوفي حين سمعت صوتًا واضحًا لأقدام تتحرك بخفة في الغرفة المجاورة، فنزلت عن

سريري وأنا أرتجف من الخوف، ثم نظرت بحذر باتجاه باب غرفة ملابسي، ومن ثَم صِحت قائلًا:

آرثر، أيها اللص الخسيس! كيف تجرأت على لمس هذا التاج؟!

كان الضوء خافتًا كما تركته وولدي التعس يقف بجوار المصباح ممسكًا التاج بيده، وقد بدا وكأنه يحاول أن يلويه أو يثنيه بكل قوّته، وعندما سمع صيحتي أسقطه على الأرض واستدار ووجهه شاحب شحوب الموتى، فالتقطت التاج ورفعته إلى الأعلى لكي أفحصه، وعندها اكتشفت اختفاء قسم من الإطار الذهبي يحتوي على ثلاثة من أحجار الزمرد، فصرخت فيه وقد أخرجني الغضب عن شعوري:

أيها النذل، لقد دمّرته وجلبت عليّ العار إلى الأبد! أين الجواهر التي سرقتَها؟

فصاح قائلًا: سرقتُها؟!

فهدرت قائلًا وأنا أمسكه من كتفيه وأهزّه: أجل أيها اللص!

فقال: لا شيء مفقود، لا يمكن أن يكون أي شيء مفقودًا.

– بل لقد فُقدت ثلاثُ زُمُرّدات وأنت تعرف أين هي. أيجب أن أنعتك بالكاذب إضافة إلى نعتك باللص؟

أم أرَك وأنت تحاول انتزاع قطعة أخرى من التاج؟

فقال: لقد أهنتني بما فيه الكفاية ولن أحتمل أكثر من ذلك، كما أنني لن أنطق بكلمة عن هذا الموضوع بما أنك قد قررت تحقيري. سأترك منزلك في الصباح وأشقّ طريقي في الحياة وحدي.

أفقدني الغضب والحزن صوابي فصِحت فيه قائلًا: ستغادره وأنت مقبوض عليك، فسوف أطلب التحقيق في هذا الأمر حتى أصل إلى الحقيقة.

فقال بانفعال لم أكن أظن أبدًا أنه قادر عليه:

لن تعرف شيئًا مني، ولو قررت الاتصال بالشرطة فدع الشرطة يكتشفون ما يستطيعون اكتشافه.

في ذلك الوقت كان كل من في المنزل قد استيقظ، فقد رفعت صوتي في فورة غضبي، وكانت ماري هي أول من أسرع إلى غرفتي، وقد أدركت ما حدث عندما رأت التاج ووجه آرثر، فصرخت ووقعت على الأرض مغشيًا عليها. بعد ذلك أرسلت الخادمة لاستدعاء رجال الشرطة ووضعتُ التحقيق بين أيديهم على الفور.

وعندما دخل المفتش وأحد رجال الشرطة إلى المنزل سألني آرثر- الذي كان يقف متجهّمًا وقد عقد ذراعيه على صدره- إن كنت أنوي

اتهامه بالسرقة، فأجبته بأن الأمر لم يعد شخصيًّا ولكنه أصبح عامًّا لأن التاج المخرّب كنز قومي، ولذلك فأنا مصرّ على أن العدالة يجب أن تأخذ مجراها في كل شيء.

فقال: على الأقل أرجو أن لا تجعلهم يقبضون عليّ في الحال، فإن من مصلحتك ومصلحتي أن تتركني أخرج من المنزل لخمس دقائق.

فقلت: أتريدني أن أفعل ذلك لتهرب، أو ربما لتخفي ما سرقته؟

بعد ذلك ولإدراكي الموقف المروِّع الذي وُضعت فيه توسّلت إليه أن يتذكر أن سمعتي ليست وحدَها المعرّضة للخطر، بل أيضًا سمعة شخص أعظم مني بكثير، وأنه بذلك يتسبب في إثارة فضيحة قد ترتجّ لها الأمة بأكملها، وقلت له إن من الممكن تفادي كل هذا بإخباري بما فعله بالأحجار الثلاثة المفقودة. قلت أيضًا:

يجب عليك أن تواجه الموقف، فقد أمسكت بك مُتلبسًا، ولا يمكن لأي اعتراف أن يزيد من فظاعة ذنبك، ولكن إذا قمت بمثل هذا التصحيح وأنت قادر عليه فسوف أنسى كل شيء وأصفح عنك.

فأجابني قائلًا: احتفظ بصفحك لمن يطلبه.

ثم استدار مبتعدًا عني بازدراء. وحين رأيت أن عناده شديد وأن

أي كلام سأقوله لن يؤثر فيه لم يعد أمامي غير طريق واحد، فناديت المفتش وسلّمته له، فقاموا بتفتيشه شخصيًّا بالإضافة إلى تفتيش غرفته وكل مكان من الممكن أن يخفي فيه الجواهر في المنزل، ولكن لم يُعثَر على أي أثر لها، كما لم ينطق ابني التعس برغم كل محاولاتنا لإقناعه أو تهديده. وقد نُقل هذا الصباح إلى إحدى الزنزانات، وأسرعت أنا إليك- بعد أن أنهيت كل تلك المعاملات الرسمية- لأتوسل إليك أن تستخدم مهاراتك لحلّ القضية، فالمفتش قد اعترف بصراحة بأنه لن يستطيع عمل شيء بشأن القضية في الوقت الحاضر.

يمكنك الإنفاق بلا حدود ما دمت ترى ذلك ضروريًّا، وقد قمت بالفعل برصد مكافأة قدرها ألف جنيه. يا إلهي، ما الذي يجب عليّ فعله؟ لقد فقدت في ليلة واحدة سمعتي وجواهري وابني! آه، ماذا سأفعل؟

ثم وضع يديه على جانبَي رأسه وأخذ يهزّ نفسه إلى الأمام وإلى الخلف وهو يهمهم كطفل أفقده الحزن قدرته على الكلام. أما شيرلوك هولمز فقد جلس صامتًا لبضع دقائق وقد عقد حاجبيه وثبّت عينيه على النار، ثم سأل قائلًا: هل تستقبلون زوارًا كثيرين؟

– لا نستقبل أحدًا سوى شريكي وعائلته، بالإضافة إلى بعض أصدقاء آرثر من حين إلى آخر، كما زارنا السير جورج بيرنويل عدة مرات في الآونة الأخيرة، ولا يوجد أحد آخر على ما أعتقد.

– هل تذهبون إلى المناسبات الاجتماعية كثيرًا؟

– آرثر يفعل، أما أنا وماري فنبقى في المنزل؛ فكلانا لا يهتم بذلك.

– هذا أمر غير اعتيادي بالنسبة لفتاة شابة.

– إنها ذات طبيعة هادئة، كما أنها ليست صغيرة جدًّا، فهي في الرابعة والعشرين.

– بدا مما قلتَه أن ما حدث كان صدمة لها أيضًا.

– لقد كان تأثيره مريعًا فيها، بل لقد فاق تأثيره فيّ أنا نفسي.

– ألم يساور أحدَكما الشكُّ في كون ابنك مذنبًا؟

– كيف يمكننا ذلك وقد رأيته بعينيّ والتاج في يده؟!

– أنا لا أعتبر ذلك دليلًا قاطعًا. هل لحق أي ضرر بالجزء المتبقي من التاج؟

– نعم، لقد التوى.

– ألا تظن إذن أنه كان يحاول تقويمه؟

– باركك الله! إنك تبذل قصارى جهدك للتخفيف عني وعنه، ولكنها مهمة ثقيلة، فما الذي كان يفعله في تلك الغرفة على أي حال؟ وإذا كان غرضه شريفًا فلماذا لم يفصح عنه؟

– تمامًا، ولو كان مذنبًا فلماذا لم يخترع كذبة؟

يبدو لي أن صمته قد يوحي بالأمرين. إنني ألمح عدة نقاط غريبة في هذه القضية. وما رأي الشرطة في الصوت الذي أيقظك من نومك؟

– لقد فسّروه بأنه صدر عندما أغلق آرثر باب غرفة نومه.

– هذا تفسير غير محتمَل، كما لو كان مَن ينوي القيام بجريمة سيقوم بإغلاق بابه بعنف حتى يوقظ أهل الدار!

وماذا قالوا إذن عن اختفاء تلك الجواهر؟

– ما زالوا يطرقون على الألواح الخشبية ويفحصون الأثاث أملًا في العثور عليها.

– هل فكروا في البحث خارج المنزل؟

– نعم، لقد أظهروا همّة كبيرة، فقد قاموا بفحص الحديقة بأكملها فحصًا دقيقًا.

فقال هولمز: والآن يا سيدي العزيز، أليس من الواضح لك أن هذه القضية تحمل في طياتها أكثر بكثير مما اعتقدت أنت والشرطة في بداية الأمر؟ فما بدا لك وكأنه قضية بسيطة يبدو لي في غاية التعقيد.

فإذا أمعنتَ النظر في نظريتك ستجد أنك تفترض أن ابنك قام من سريره وذهب- مع ما في ذلك من مخاطرة شديدة- إلى غرفة ملابسك ليفتح مكتبك ويُخرج التاج، ثم يقوم باستعمال القوة الشديدة ليكسر قطعة صغيرة منه، ويذهب بعد ذلك إلى مكان آخر ويخفي ثلاث زُمرّدات (من أصل تسع وثلاثين) بمهارة بحيث لا يستطيع أحد أن يعثر عليها، وبعدها يعود ومعه الزمرّدات الست والثلاثون الباقية إلى الغرفة، معرّضًا نفسه إلى خطر داهم باكتشافه. أسألك الآن يا سيدي:

أيمكنك قبول مثل هذه النظرية؟

صاح المصرفي بيأس قائلًا:

ولكن ما هو البديل؟

ولماذا لا يبرر تصرفاته إن كان بريئًا؟

فأجاب هولمز قائلًا:

إن مهمتنا هي اكتشاف ذلك، ولذلك سنذهب الآن معًا إلى

ستريتهام ونقضي ساعة في دراسة التفصيلات عن قرب.

***

أصرّ صديقي على أن أرافقهما في تلك الرحلة الاستكشافية، كما أنني كنت متشوّقًا لذلك لأن القصة التي سمعتها أثارت فضولي وتعاطفي. وأعترف بأن ذنب الابن كان واضحًا لي وضوحه لأبيه الحزين، ولكنني- بالرغم من ذلك- كنت أثق بحصافة رأي هولمز مما جعلني أشعر بأن هناك ما يدعو إلى الأمل ما دام أنه لم يكن راضيًا عن التفسير المتفق عليه.

وقد لزم هولمز الصمت طَوال الطريق إلى الضاحية الجنوبية للمدينة، وجلس وذقنه على صدره وقد سحب قبعته لتغطي عينيه وغرق في تفكير عميق، بينما انتعش عميلنا بشعاع الأمل البسيط الذي أعطاه هولمز له، حتى إنه انخرط معي في حوار متقطع عن أحوال عمله.

وصلنا بعد رحلة قصيرة بالقطار وأخرى أقصر على الأقدام إلى «فيربانك»، وهو محل الإقامة المتواضع للخبير المالي العظيم.

كان فيربانك منزلًا من الحجارة البيضاء كبيرًا إلى حد ما وله شكل مربع ويبعد عن الطريق قليلًا، وأمامه طريق مزدوج للعربات له مرج

يكسوه الثلج ويمتد حتى يصل إلى بوّابتين حديديتين واسعتين يغلقان المدخل، وعلى الجانب الأيمن ممر ضيّق يمتد من الشارع بين سياجين أنيقين إلى باب المطبخ ليمثل مدخل البائعين، أما على الجانب الأيسر فيقود شارع ضيّق إلى الإسطبلات، وإن كان لا يقع ضمن حدود الحديقة حيث إنه طريق عام برغم أنه لا يستعمَل إلا نادرًا.

كنا نقف عند الباب حين تركَنا هولمز ودار ببطء حول المنزل بأكمله، حيث سار عبر المدخل حتى ممر الباعة ثم أكمل دورانه حول المنزل مستخدمًا الحديقة الخلفية حتى وصل إلى الشارع الضيّق المؤدي إلى الإسطبل، وقد استغرق وقتًا طويلًا، ولذلك دخلت أنا والسيد هولدر إلى قاعة الطعام وانتظرناه قرب النار حتى يعود.

وكنا نجلس هناك في صمت عندما فُتح الباب ودخلت سيدة شابة، كان طولها فوق المتوسط، وكانت نحيلة الجسم وقد زاد شحوب وجهها الشديد من سواد عينيها وشعرها، فلا أعتقد أنني سبق أن رأيت امرأة يكسو وجهَها مثلُ هذا الشحوب المميت.

وقد بدت شفتاها شاحبتين أيضًا، أما عيناها فكانتا محتقنتين من البكاء، فتركَت في نفسي أثرًا أشد مما فعل المصرفيّ في الصباح.

سارت عبر الغرفة بصمت، وبدا واضحًا أنها امرأة ذات شخصية قوية وتتمتع بقدرة هائلة على ضبط النفس.

وقد اتجهت مباشرة إلى عمها- غيرَ مبالية بوجودي- ومرّت بيدها على رأسه بطريقة أنثوية لطيفة، ثم سألت قائلة: لقد أمرتهم بإطلاق سراح آرثر، أليس كذلك يا أبي؟

- لا، لا يا ابنتي، يجب التحقيق في هذا الأمر حتى نصل إلى نتيجة.

- ولكنني متأكدة تمامًا من أنه بريء، وأنت تعرف كيف هي غريزة المرأة، فأنا أعرف أنه لم يفعل ما يضرّ وأنك ستندم على التصرّف بهذه القسوة.

- ولماذا يلتزم الصمت إذن إن كان بريئًا؟

- من يدري؟ ربما لأنه كان غاضبًا جدًّا بسبب شكك فيه.

- وكيف يمكنني أن لا أشك فيه وقد رأيته بعيني وهو ممسك بالتاج بين يديه؟

- نعم، ولكنه كان قد التقطه فقط لينظر إليه. أرجوك، أرجوك أن تثق بكلامي حين أقول لك إنه بريء.

تخلَّ عن القضية ولا تسعَ وراءها؛ فإن من المريع تصوّر العزيز آرثر

وهو في السجن.

– لن أتخلى عنها أبدًا حتى نجد الجواهر، أبدًا يا ماري. إن مشاعرك تجاه آرثر قد أعمتك عن رؤية التبعات السيئة التي ستحل عليّ. لقد أحضرت معي من لندن سيدًا سيقوم بالتحقيق في القضية بدقة أكبر عوضًا عن التستّر على الأمر.

فسألت وهي تستدير لتنظر إليّ:

هذا السيد؟

– لا، بل صديقه، ولكنه طلب منّا أن نتركه وحده، وهو الآن يتجوّل في الطريق المؤدي إلى الإسطبلات.

رفعت حاجبيها الداكنين وقالت:

طريق الإسطبل؟

وما الذي يرجو أن يجده هناك؟

آه، ها هو قد جاء على ما أعتقد.

عندما اقترب هولمز قالت له: إنني أعتمد عليك يا سيدي لتثبت براءة ابن عمي آرثر من هذه الجريمة، وهو الأمر الذي أنا متأكدة منه.

فأجابها هولمز قائلًا:

أوافقك الرأي تمامًا، وأنا واثق من أنني سأتمكن من إثبات ذلك بمساعدتك.

ثم رجع إلى الممسحة لينفض الثلج عن حذائه وعاد ليقول: أظن أنني أتشرّف بمحادثة الآنسة ماري هولدر، فهل تسمحين لي بطرح سؤال أو اثنين؟

– أرجو أن تفعل يا سيدي إذا كان في ذلك ما يساعد في حلّ هذه القضية المروعة.

– ألم تسمعي شيئًا ليلة أمس؟

– لم أسمع أي شيء حتى بدأ عمي يتكلم بصوت مرتفع، وقد أسرعت عندما سمعت صياحه.

– هل أغلقت النوافذ والأبواب في الليلة السابقة؟

نعم.

– وهل كانت كلها محكمة الإغلاق هذا الصباح؟

نعم.

– أظن أن لإحدى خادماتك صديقًا، وأذكر أنك قلت لعمك بالأمس إنها خرجت لرؤيته، أليس كذلك؟

– بلى، وهي الخادمة نفسها التي قامت بخدمتنا قبل ذلك في تلك الليلة، ومن الممكن أن تكون قد سمعت ملاحظات عمي عن التاج.

– فهمت. أنت تلمّحين إلى أنها ربما خرجت لتخبر صديقها، وبعد ذلك دبّر الاثنان السرقة؟

فصاح المصرفيّ بنفاد صبر قائلًا: وما الجدوى من كل هذه النظريات المبهَمة وقد أخبرتك أنني رأيت آرثر والتاج بين يديه؟

– انتظر قليلًا يا سيد هولدر وسنعود لاحقًا إلى ما تقول. بخصوص تلك الفتاة يا آنسة هولدر، أظن أنك رأيتها تعود من باب المطبخ؟

– نعم، فعندما ذهبت لأتأكد من أن الباب محكم الإغلاق في تلك الليلة قابلتها وهي تتسلل إلى الداخل، كما أنني رأيت الرجل أيضًا في عتمة الليل.

– هل تعرفينه؟

– نعم، إنه الفتى الذي يحضر لنا الخضروات واسمه فرانسيز بروسبر.

– أكان يقف إلى يسار الباب؟

بمعنى آخر، هل تقدّم في الممر أكثر من اللازم حتى يصل إلى الباب؟

– نعم، لقد فعل.

– وهل له ساق خشبية؟

فظهر ما يشبه الخوف في عينَي الشابة السوداوين المعبّرتين وقالت: يا للعجب!

إنك كالساحر. كيف عرفت ذلك؟!

ثم ابتسمت، ولكن لم تظهر على وجه هولمز النحيل المتلهف ابتسامةٌ مقابلة، وقال:

يسعدني الآن الصعود إلى الطابق العلوي، كما أنه من المحتمل أن أرغب في فحص خارج المنزل مرة أخرى، ولكن قد يكون من الأفضل أن أُلقي نظرة على النوافذ السفلية قبل أن أصعد.

انتقل هولمز بسرعة من نافذة إلى أخرى، ولكنه توقف فقط عند النافذة الأكبر التي تطل من القاعة على الطريق المؤدي إلى الإسطبل، حيث قام بفتحها وفحص عتبتها بعناية شديدة مستخدمًا عدسته المكبّرة القوية، ثم قال أخيرًا: والآن لنذهب إلى الطابق العلوي.

كانت غرفة ملابس المصرفي صغيرة قليلة الأثاث، فلم يكن فيها سوى سجادة رمادية ومكتب كبير ومرآة طويلة. ذهب هولمز إلى المكتب أولًا وتفحص القفل جيدًا، ثم سأل: بأي مفتاح تم فتحه؟

– بذلك المفتاح الذي أشار إليه ابني بنفسه. إنه مفتاح خزانة غرفة التخزين.

– هل هو معك هنا؟

– إنه هناك على طاولة الزينة.

أخذه شيرلوك هولمز وفتح المكتب، ثم قال:

إنه قفل بلا صوت، فلا عجب إذن في أنه لم يوقظك.

وأفترضُ أن هذه هي الحقيبة التي تحتوي على التاج؟ يجب أن ألقي نظرة عليها.

ثم فتح الحقيبة ليُخرج التاج ويضعه على الطاولة. كان التاج نموذجًا رائعًا لفن صانعه، كما أن الأحجار الستة والثلاثين كانت من أنقى ما رأيت. وكان أحد طرفَيه مكسورًا، وهو المكان الذي انتُزعت منه الزاوية التي تحمل الزمرّدات الثلاث.

قال هولمز: والآن يا سيد هولدر، ها هي الزاوية المناظرة لتلك التي

فُقدت بكل أسف. هل لي أن أطلب منك أن تكسرها؟

فتراجع المصرفيّ في هلع وقال: إنني لا أجرؤ حتى على المحاولة.

- سأحاول أنا إذن.

وفجأة ركّز هولمز كل قوّته فيه ولكن بلا فائدة، فقال:

أظن أنني أرخيته قليلًا، ولكن بالرغم من أن أصابعي قوية جدًّا إلا أنه سيستغرق مني وقتًا طويلًا لأكسره، أما الشخص العادي فلن يستطيع فعل ذلك. والآن يا سيد هولدر، ما الذي سيحدث في رأيك إذا كسرته؟

سيُصدر صوتًا كطلقة المسدس، فهل تريد أن تقنعني بأن من الممكن أن يحدث كل ذلك على بُعد أمتار قليلة منك دون أن تسمع شيئًا؟

- إنني في حيرة من أمري، وكل شيء غامض بالنسبة لي.

- قد يخفّ الغموض مع تقدّمنا في التحقيق. ما رأيك يا آنسة هولدر؟

- أعترف بأنني أشارك عمي حيرته.

- هل كان ابنك يرتدي حذاء أو خُفًّا عندما رأيته؟

- لم يكن يرتدي إلّا قميصه وبنطاله.

– شكرًا لك. إن الحظ يحالفنا في هذا التحقيق، وسيكون الخطأ خطأنا إذا لم ننجح في حلّ هذه القضية. بعد إذنك يا سيد هولدر، سأستأنف بحثي في الخارج.

ذهب هولمز وحده بناء على طلبه، وقد فسّر ذلك بأن آثار الأقدام غير الضرورية قد تزيد من صعوبة مهمته. وقد استمر بالعمل لمدة ساعة أو أكثر، ثم عاد أخيرًا وقدماه محمّلتان بالثلج وملامحه مبهمة كالعادة، وقال:

أعتقد أنني رأيت كل شيء يا سيد هولدر، وسأفيدك أكثر بعودتي إلى مسكني.

– وماذا عن الجواهر يا سيد هولمز؟ أين هي؟

– لا أعرف.

لوى المصرفيّ يديه وصاح: ألن أراها ثانية؟

وماذا عن ابني؟

لقد أعطيتني الأمل.

– إن رأيي لم يتغير إطلاقًا.

– وما الذي حدث إذن في منزلي ليلة أمس بالله عليك؟

– إذا استطعتَ الحضور إلى منزلي في شارع بيكر فيما بين الساعة التاسعة والعاشرة من صباح الغد فسوف يسعدني أن أبذل جهدي لأوضّح لك الأمر أكثر، وكما فهمت فأنت تعطيني كامل الصلاحية في التصرف نيابة عنك على أن أعيد الجواهر، بالإضافة إلى عدم وجود حدود للمبلغ الذي سأسحبه.

– أنا على استعداد للتنازل عن ثروتي في مقابل استعادتها.

– عظيم، سأدرس الأمر منذ الآن وحتى ذلك الوقت. إلى اللقاء، ولكن من الممكن أن أضطرّ إلى العودة إلى هذا البيت.

بدا واضحًا لي أن رفيقي قد كون رأيًا عن القضية، أما أنا فلم أستطع تكوين أي تصوّر مهما يكن بسيطًا عن النتيجة التي وصل إليها. وقد حاولت عدة مرات خلال رحلتنا إلى المنزل أن أتطرق إلى الموضوع، ولكنه كان يتملّص مني وينتقل إلى أحد المواضيع الأخرى حتى استسلمت أخيرًا في يأس.

وقد وصلنا إلى مسكننا قبل الساعة الثالثة، فأسرع هولمز إلى غرفته ثم نزل ثانية بعد دقائق قليلة وهو متنكر بزيّ متسكّع وَضيع، وقد مثّل

نموذجًا متقَنًا لتلك الفئة من الناس بياقته المرفوعة إلى الأعلى ومعطفه المنحول الرثّ وحذائه البالي.

وقال وهو يلقي نظرة سريعة على المرآة المعلّقة فوق المدفأة: أعتقد أن هذا سيَفي بالغرض، وكنت أتمنى أن تستطيع القدوم معي يا واطسون ولكنني أخشى أن هذا لن يفيد.

قد أكون على الطريق الصحيح بالنسبة لهذا الموضوع وقد يكون ما أسعى وراءه سرابًا، وهذا ما سأكتشفه قريبًا. أرجو أن أعود بعد ساعات قليلة.

ثم قطع شريحة من لحم البقر من القطعة الموجودة على المائدة الجانبية ووضعها بين طبقتين من الخبز، وبعد أن دسّ هذه الوجبة البدائية في جيبه انطلق في رحلته الاستكشافية.

***

كنت قد انتهيت من شرب الشاي للتوّ حين عاد هولمز الذي كان من الواضح أنه في حالة مزاجية ممتازة، وهو يؤرجح في يده حذاء قديمًا له جوانب مطاطية رماه في الركن وأعدّ لنفسه كوبًا من الشاي.

وقال: لقد كنت مارًّا فدخلت فقط لوقت قصير، وسأخرج ثانية

على الفور.

– إلى أين؟

– إلى الناحية الأخرى من الجانب الغربي. وقد يمر بعض الوقت قبل أن أعود، ولذلك فلا تسهر في انتظاري في حال تأخري.

– كيف يتقدم تحقيقك؟

– لا هو بالرديء ولا هو بالجيد، ولكن لا يوجد ما أشتكي منه. لقد ذهبت إلى ستريتهام بعد أن رأيتك آخر مرة ولكنني لم أدخل إلى المنزل، إنها مشكلة لطيفة وبسيطة ولم أكن لأضيّعها مهما كان الثمن. على أية حال لا يجب أن أجلس لأثرثر هنا، بل يجب عليّ أن أخلع هذه الملابس المخزية لأعود إلى هيئتي المحترمة.

استطعت أن أستشفّ من تصرفاته أن لديه أسبابًا أقوى للارتياح مما تدل عليه كلماته وحدها، فقد لمعت عيناه وتسللت حمرة خفيفة إلى خديه الشاحبين. وأسرع هولمز إلى الطابق العلوي، وبعد دقائق قليلة سمعته يصفق باب القاعة فعرفت أنه انطلق ثانية وراء صيده المحبَّب.

انتظرت حتى منتصف الليل، ولمّا لم أجد أية إشارة على عودته أويت إلى غرفتي، فلم يكن من غير الطبيعي أن يغيب لأيام متصلة

حين يكون في أعقاب أثر ما، ولهذا لم يفاجئني تأخره.

ولم أعرف في أي ساعة عاد، ولكن عندما نزلت لأتناول إفطاري وجدته هناك وقد أمسك بقدح من القهوة في يد وبالصحيفة في اليد الأخرى وهو في قمة نشاطه وأناقته.

قال: اعذرني لأنني بدأت قبل نزولك يا واطسون، ولكنك تذكر أن لعميلنا موعدًا مبكرًا هذا الصباح.

فأجبته قائلًا:

يا للعجب! لقد تجاوزت الساعة التاسعة، ولن أدهش إن كان هو مَن جاء الآن، فقد سمعت صوت الجرس.

كان القادم حقًّا هو صديقنا المصرفي، وقد صُدمت بالتغيير الذي حدث له، فوجهه الذي كان في العادة عريضًا ضخم الشكل أصبح هزيلًا ضامرًا، بينما بدا لي شعره وكأنه قد ازداد شيبًا!

وقد دخل إلى الغرفة تظهر عليه أمارات الوهن والخمول، الأمر الذي كان أكثر إيلامًا من تصرفاته العنيفة التي قام بها صباح اليوم السابق.

ارتمى بتثاقل على الكرسي ذا الذراعين الذي دفعته إلى الأمام ليجلس عليه، وقال:

لا أعرف ما الذي فعلته لأُبتلى بهذه الشدة، فمنذ يومين فقط كنت رجلًا سعيدًا ناجحًا ولا أحمل همّ شيء في هذا العالم، والآن تُركت لأشيخ وحيدًا محمّلًا بالعار والمِحَنُ تتوالى عليّ الواحدة في أعقاب الأخرى، فقد تخلّت عني ابنة أخي ماري.

- تخلّت عنك؟!

- نعم، فهذا الصباح كانت غرفتها خالية، ولم تكن قد نامت في سريرها، كما كانت هناك رسالة قصيرة لي على طاولة القاعة. فقد قلت لها ليلة أمس، بأسف وليس بغضب، إنها لو كانت تزوّجت بابني لكان أمره قد صَلُح. وربما لم أُراعِ مشاعرها بهذا الكلام، فهي تشير إلى هذا التعليق في هذه الرسالة فتقول:

عمي الغالي: أشعر أني تسببت لك في مشكلة وأنني لو تصرفت بطريقة مختلفة لما كانت هذه النكبة الرهيبة قد حلّت أبدًا، ولن أستطيع أن أسعد تحت سقف بيتك ثانية وأنا أعرف ذلك، ولذلك أشعر بأنني يجب أن أترك منزلك إلى الأبد.

لا تقلق على مستقبلي فهو مؤمَّن، وقبل كل شيء لا تبحث عني، فسيكون ذلك عملًا غير مثمر وفيه إحراج لي.

مُحبّتك إلى الأبد: ماري

– ما الذي تعنيه بهذه الرسالة يا سيد هولمز؟

أتظنها تشير إلى الانتحار؟

– لا، لا شيء من هذا القبيل، بل إن ذلك قد يكون هو الحل الأمثل، وأنا على ثقة من أنك تقترب من نهاية متاعبك يا سيد هولدر.

– ماذا؟!

أحقًّا تقول؟

أسمعت شيئًا يا سيد هولمز؟

أعرفت شيئًا؟

أين هي الجواهر؟

– أتظن أن ألف جنيه للقطعة سعر مبالَغ فيه؟

– أنا على استعداد لدفع عشرة آلاف.

– هذا غير ضروري، فثلاثة آلاف ستتكفّل بالأمر، وهناك مكافأة صغيرة على ما أعتقد. هل معك دفتر شيكاتك؟

خذ القلم؛ من الأفضل أن تكتب الشيك بأربعة آلاف جنيه.

كتب المصرفي الشيك المطلوب والذهولُ بادٍ على وجهه، فمشى هولمز إلى مكتبه وأخرج قطعة من الذهب صغيرة مثلّثة الشكل وعليها ثلاثة أحجار كريمة، وألقى بها على الطاولة.

أطلق عميلنا صرخة فرح وهو يُطبق عليها ويرفعها ويشهق قائلًا: حصلت عليها! لقد نجوت، لقد نجوت!

ثم عبّر عن سعادته بنفس الحدّة الانفعالية التي عبّر بها عن حزنه وضمّ الجواهر المستردّة إلى صدره، فقال شيرلوك هولمز بصرامة: أنت مَدين بشيء آخر يا سيد هولدر.

– مدين؟!

ثم التقط القلم وقال: حدّد المبلغ وسوف أدفعه يا سيد هولمز.

– لا، إن الدَّين ليس لي، بل إنك مَدين باعتذار صادق لذلك الصبي النبيل، ابنك، فقد تصرّف في هذا الأمر بما يدعو إلى الفخر.

– لم يكن آرثر هو مَن أخذها إذن؟

– لقد أخبرتك بالأمس، وأكرر اليوم أنه لم يفعل.

– أأنت متأكد من ذلك؟!

دعنا إذًا نسرع إليه ونخبره بأن الحقيقة قد ظهرت. إنه يعرف ذلك بالفعل، فقد ذهبت لمقابلته بعدما وضحت الأمور، وعندما وجدت أنه يرفض إخباري بالقصة أخبرته أنا بها، وعندها اعترف بأنني على حق وأضاف بعض التفصيلات القليلة جدًّا التي لم تكن واضحة لي تمامًا... وإن كانت الأخبار التي أحضرتها هذا الصباح قد تجعله يتكلم.

– إذن أخبرني بالله عليك، ما هذا اللغز الغريب؟!

– سأفعل ذلك، وسأوضح لك الخطوات التي اتبعتها لحلّه، ولكن دعني أخبرك أولًا بما يصعُب عليّ قوله كما سيصعُب عليك سماعه. ثمة تفاهم بين السير جورج بيرنويل وبين ابنة أخيك ماري، وقد هربا الآن معًا.

– ماري؟!

مستحيل!

الأمر ليس مجرَّد احتمال للأسف، بل هو مؤكد؛ فلا أنت ولا ابنك عرفتما الشخصية الحقيقية لذلك الرجل عندما سمحتما بدخوله إلى منزل العائلة.

إنه واحد من أخطر الرجال في إنجلترا، فهو مدمن على القمار ووغد

لا أمل فيه على الإطلاق، كما أنه بلا قلب ولا ضمير. وابنة أخيك لا تعرف شيئًا عن هذا الرجل، فعندما همس لها بعهوده- كما فعل مع المئات قبلها- شعرت بالزّهو لأنها الوحيدة التي مسّت قلبه كما صوّر لها. وهكذا صارت أداة في يده واعتادت أن تراه كل ليلة تقريبًا.

صاح المصرفيّ وقد شحب وجهه شحوب الموتى قائلًا: لا أستطيع تصديق ذلك، ولن أفعل!

- سأخبرك إذن بما حدث في منزلك ليلة أمس، فعندما اعتقدَت ابنة أخيك أنك ذهبت إلى غرفتك تسلّلَت لتتحدّث إلى صديقها هذا عبر النافذة المطلة على طريق الإسطبل، فآثار أقدامه مطبوعة بوضوح على الثلج مما يدل على طول المدة التي وقفها هناك. وعندما أخبرَته عن التاج أثارت الأخبارُ شهوته الكريهة تجاه الذهب فاستمالها لتنفّذ رغبته.

أنا لا أشك في حبها لك، ولكن من النساء من يطغى حب الحبيب عندهنّ على كل أنواع الحب الأخرى، وأعتقد أنها واحدة منهن. وكانت بالكاد قد استمعت إلى تعليماته حين رأتك نازلًا إلى الطابق السفلي، فأغلقت النافذة بسرعة وأخبرتك عن تصرفات الخادمة الطائشة مع صديقها ذي الساق الخشبية، وهو الأمر الذي كان صحيحًا تمامًا.

أما ابنك آرثر فقد ذهب لينام بعد حديثه معك، ولكنه لم يَنم جيدًا بسبب انزعاجه من ديونه في النادي.

وفي منتصف الليل سمع صوتًا خافتًا لخطوات تمرّ بباب غرفته، فنهض ونظر ليُفاجَأ بأن ابنة عمه تتسلل خلسة عبر الممر ثم تدخل إلى غرفة ملابسك.

وصدمه الذهول فارتدى بعض الملابس وانتظر هناك في الظلام ليرى عن أي شيء سيسفر هذا الأمر الغريب، وفي الحال خرجت ثانية من الغرفة، واستطاع ابنك في ضوء مصباح الممر أن يرى أنها تحمل التاج الثمين في يدها، وعندما نزلت الدرَج أسرع- وهو يرتعش رعبًا- واختبأ خلف الستارة القريبة من باب غرفتك حيث كان يستطيع رؤية ما يحدث بالأسفل في القاعة، فرآها تفتح النافذة خلسة وتعطي التاج لشخص يقف في الظلام ثم تغلق النافذة ثانية وتُسرع إلى غرفتها مارّة بالقرب من حيث يقف مختبئًا خلف الستارة.

لم يستطع ابنك أن يقوم بأي تصرّف ما دامت ماري في المكان وإلا عرّض المرأة التي يحب لفضيحة رهيبة، ولكنه أدرك فور مغادرتها كيف ستحطمك هذه النكبة وكيف أن من المهم إصلاح الأمر؛ فأسرع بالنزول

كما هو، عاري القدمين، وفتح النافذة ثم قفز خارجًا في الثلج وجرى في الشارع الضيّق، واستطاع رؤية خيال قاتم في ضوء القمر. وقد حاول السير جورج بيرنويل الهرب ولكن آرثر تمكّن من الإمساك به، ودار شجار بينهما فأمسك آرثر بأحد جوانب التاج وأمسك غريمه بالجانب الآخر، وقد ضرب ابنك السير جورج وجرحه فوق عينه، وفجأة انكسر شيء ما، واكتشف ابنك أنه يمسك بالتاج بين يديه، فأسرع عائدًا ثم أغلق النافذة وصعد إلى غرفتك، حيث لاحظ في تلك اللحظة أن التاج قد التوى في أثناء العراك، وكان يحاول تصحيح شكله حين ظهرت أنت.

شهق المصرفي قائلًا:

أهذا معقول؟!

- وعندها أثرت غضبه بإهانتك له في الوقت الذي شعر فيه أنه يستحق خالص شكرك، ولم يكن يستطيع أن يشرح حقيقة الأمر دون أن يفضح المرأة التي لم تكن تستحق مثل هذه المراعاة من جانبه، ولكنه- على أية حال- تعامل مع الأمر بفروسية وحافظ على سرّها.

صاح السيد هولدر قائلًا:

ولهذا صرخَت وفقدت وعيها حين رأت التاج؟

آه، يا إلهي! كم كنت أحمق وأعمى!

ولهذا طلب مني أن أسمح له بالخروج لخمس دقائق... لقد كان الابن العزيز يريد أن يبحث عن القطعة المفقودة في مكان العراك. كم كنت قاسيًا في الحكم عليه!

تابع هولمز قائلًا:

حالما وصلت إلى المنزل قمت بالدوران حوله وأنا أبحث بدقة شديدة عن أية آثار في الثلج قد تساعدني، فقد كنت أعرف أن الثلج لم ينهمر ثانية منذ الليلة السابقة، كما كنت أعرف أن الصقيع سيحفظ الأثر.

وعندما سرت على طول ممر الباعة وجدت به آثارًا كثيرة مختلطة بحيث لا يمكن التمييز بينها، وإن وجدت خلفه مباشرة عند الجانب الأبعد لباب المطبخ آثارًا لامرأة وقفت تتحدث مع رجل ذي ساق خشبية كما تدل الآثار المستديرة الموجودة على أحد الجوانب، واستطعت أيضًا أن أعرف أن أحدًا قد قاطعهما لأن المرأة أسرعت عائدة إلى الباب كما يظهر من مقدمة القدم الغائرة والأثر الخفيف للكعب، بينما انتظر صاحب الساق الخشبية قليلًا ثم انصرف.

وقد ظننت في ذلك الوقت أن هذه الآثار قد تكون للخادمة (التي

كنتَ قد أخبرتني عنها) وصديقها، وقد أثبت التحقيق صحة ذلك. ولم أجد في باقي الحديقة غير آثار عشوائية قررت أنها لرجال الشرطة، غير أنني عندما وصلت إلى الشارع الضيّق وجدت قصة طويلة ومعقَّدة مكتوبة على الثلج الممتد أمامي.

كان هناك خط مزدوج من الآثار لرجل يرتدي حذاء وخط آخر مزدوج- أسعدتني رؤيته- لرجل عاري القدمين، وقد تأكدتُ بسبب ما أخبرتَني به أن الأخير هو ابنك. كان الأول قد سار في الاتجاهين، أما الآخر فقد جرى بسرعة، وبما أن خطواته تركت أثرًا في بعض الأماكن فوق أثر الحذاء فقد كان من الواضح أنه قد مرّ بعد الشخص الأول.

سرت متتبعًا الآثار فوجدت أنها تقود إلى نافذة القاعة حيث أزاح صاحب الحذاء كل الثلج تحت النافذة بينما كان ينتظر، ثم مشيت مسافة مئة متر أو أكثر لأصل إلى الناحية الأخرى من الطريق فرأيت المكان الذي استدار صاحب الحذاء عنده، ورأيت كيف اضطرب فيه الثلج كما لو كان صراع قد وقع هناك، وأخيرًا رأيت بضع قطرات من الدم على الثلج مما أظهر لي أنني لم أكن مخطئًا. وقد جرى صاحب الحذاء على طول الطريق ودلّ ظهور لطخة ثانية على أنه هو مَن أُصيب، وعندما

وصل الأثر إلى الطريق العام في آخر الشارع وجدت أن الرصيف قد تم تنظيفه، وبهذا انتهى هذا الدليل.

وإذا كنت تذكر فإنني قد قمت فور دخولي إلى المنزل بفحص عتبة نافذة القاعة وإطارها الخشبي مستخدمًا عدستي المكبّرة، فاستطعت على الفور رؤية أن شخصًا قد خرج منها، كما استطعت تمييز الخط الخارجي لمشط قدم مبلل يخطو إلى الداخل، وعندها تمكّنت من تكوين نظرية عما حدث؛ فقد انتظر أحد الرجال خارج النافذة حتى أحضر أحد الأشخاص الجواهر، وهو الأمر الذي شاهده ابنك فقام بملاحقة اللص وتعارك معه، وأخذ كلٌّ منهما يشدّ التاج من ناحية، وقد أحدثت قوّتهما مجتمعة أضرارًا لم يكن أحدهما قادرًا وحده على إحداثها. ثم عاد بالغنيمة ولكنه ترك قطعة في قبضة خصمه.

كان كل شيء واضحًا حتى الآن، ولكن بقي سؤال هو: مَن كان الرجل؟ ومَن أحضر له التاج؟

إن من المبادئ الأساسية الأصيلة عندي أننا حين نحذف المستحيل فما يتبقى يجب أن يكون الحقيقة مهما صَعُب تصديقها. والآن بما أنني أعرف أنه لم يكن أنت من أحضره فلم يبقَ أمامي غير ابنة أخيك

والخادمات، ولكن إن كانت إحدى الخادمات هي المذنبة فلماذا يسمح ابنك بأن يُلام بدلًا منها؟

لا يوجد سبب ممكن لذلك. ولكن بما أنه يحبّ ابنة عمه فهذا تفسير ممتاز لرغبته في حفظ سرّها، ولا سيما أنه سرّ مُشين. وعندما تذكرت أنك رأيتها بالقرب من النافذة وأنها قد فقدت وعيها عندما شاهدت التاج تحوّل شكّي إلى يقين.

ومَن يمكن أن يكون شريكها؟

لابد أنه رجل تحبه، وإلّا فمَن غير ذلك يمكن أن يطغى حبه على الحب والامتنان اللذين لا بدّ وأنها تشعر بهما نحوك؟

لقد عرفت أنكما لا تخرجان إلا قليلًا وأن دائرة أصدقائكما محدودة جدًّا، ولكنها تضم السير جورج بيرنويل الذي كنت أعرفه من قبل سمعته السيئة مع النساء، فلابد إذن أن يكون هو مَن كان يرتدي الحذاء وأنه هو مَن حصل على الجواهر المفقودة.

وبالرغم من أن آرثر قد اكتشفه إلا أنه كان لا يزال مطمئنا إلى أنه في أمان، حيث إن آرثر لم يكن ليستطيع أن يقول شيئًا دون أن يعرض أسرته إلى الخطر.

حسنًا، بعد ذلك ذهبت إلى منزل السير جورج وأنا في هيئة متسكّع وتمكّنت من التّعرف على خادمه الخاص الذي أخبرني بأن سيّده قد جُرِح في رأسه ليلة أمس، وأخيرًا حرصت على شراء أحد أحذيته القديمة في مقابل ستة شلنات، حيث حملتها معي إلى ستريتهام لأتأكد من أنها تتوافق تمامًا مع آثار الأقدام.

قال السيد هولدر:

لقد رأيت متشردًا في ملابس رثّة في طريق الإسطبل مساء أمس.

– تمامًا، ذلك كان أنا. وعندما اكتشفت أنني قد عثرت على الرجل المطلوب عدت إلى المنزل وغيّرت ملابسي، فقد كان الدور الذي عليّ لعبه في ذلك الوقت دقيقًا جدًّا، حيث كنت أعرف أننا يجب أن نتجنب اتخاذ أية إجراءات قانونية ضده لنتفادى الفضيحة. وعرفت أن مثل هذا الشرّير الماكر سيحرص على أن تكون أيدينا مقيَّدة في هذه القضية، فذهبت لرؤيته.

وبالطبع فقد أنكر كل شيء في البداية، ولكن حين أعطيته التفصيلات الدقيقة لما حدث حاول تهديدي وأمسك بهراوة كانت بقربه، ولأنني أعرف حقيقته وضعت مسدسي بسرعة على رأسه قبل

أن يتمكن من توجيه الضربة فصار أكثر عقلانية. وعندما أخبرته بأننا سنعطيه ألف جنيه مقابل كل حجر كريم ظهرت بوادر الأسى عليه للمرة الأولى وقال: يا للكارثة! لقد بعت الثلاثة أمس بستمئة جنيه!

وقد تمكّنت سريعًا من الحصول على عنوان المشتري بعد أن وعدته بعدم مقاضاته، وانطلقت إلى هناك فورًا حيث استطعت بعد مفاوضات كثيرة أن أحصل على الجواهر مقابل ألف جنيه للقطعة، ثم ذهبت إلى ابنك وأخبرته بأن كل شيء على ما يرام، وفي آخر الأمر عدت لأخلد إلى النوم في نحو الساعة الثانية بعد يوم عمل شاق.

قال المصرفي وهو ينهض: إنه يوم أنقذتَ به إنجلترا من فضيحة كبرى يا سيد هولمز. إنني لا أستطيع أن أجد كلمات لأشكرك بها يا سيدي، وسأعرب لك عن امتناني بما فعلت، فمهارتك تجاوزت كل ما سمعت. والآن يجب أن أسرع إلى ابني لأعتذر له عن الأذى الذي سبّبته له، وأما بخصوص المسكينة ماري فأنا أشفق عليها بسبب ما أخبرتَني به، فرغم مهارتك لن تستطيع أن تخبرني بمكانها الآن.

فأجابه هولمز قائلًا: يمكننا أن نقول إنها مع السير جورج أينما كان، ومن المؤكد أيضًا أنها ستلقى العقاب الكافي على ذنوبها أيًّا كانت.

مغامرات شيرلوك هولمز

لُغز العصابة الرقطاء

تأليف

آرثر كونان دويل

حين ألقي نظرة سريعة على سجلاتي الخاصة بالقضايا السبعين الغريبة التي قمت فيها بدراسة أساليب صديقي شيرلوك هولمز خلال الأعوام الثمانية الماضية أجد الكثير منها مأساوياً، وبعضها مضحكاً، وعدداً كبيراً منها غريباً فحسب.

ولكن ليس بينها ما هو عادي على أية حال؛ ذلك لأن صديقي كان يعمل من منطلق حب عمله وفنه وليس من أجل الحصول على ثروة، ولذلك كان يرفض أن يربط نفسه بأي تحقيق لا يغلب عليه طابع الغرابة والتشويق، وربما الخيال الجامح أيضاً.

ومن بين كل هذه القضايا المتنوعة لا أستطيع أن أذكر أي قضية تقدم ملامح أكثر غرابة من تلك التي ارتبطت بعائلة رويلوت المعروفة والتي كانت تقيم في ستوك موران في إقليم صري.

وقد وقعت أحداث هذه القضية في الأيام الأولى التي جمعتني بهولمز حين كنا نسكن معاً في شارع بيكر قبل زواجي، وكان من الممكن أن أنشرها من قبل لولا أننا قطعنا على أنفسنا في ذلك الوقت وعداً بالحفاظ على سرية القضية، وهو وعد أجدني وقد تحررت منه في الشهر الماضي بسبب الوفاة المبكرة للسيدة التي قدم الوعد لها.

وبالإضافة إلى ذلك فلعل من الأفضل أن تظهر الحقيقة إلى النور الآن، لا سيما والشائعات منتشرة بشأن موت الدكتور غريمسباي رويلوت، ومن شأن تلك الشائعات أن تصور الأمر بأسوأ من حقيقته.

كنا في أوائل شهر نيسان (أبريل) من عام ١٨٨٣م عندما استيقظت ذات صباح لأجد شيرلوك هولمز مرتدياً ملابسه كاملة وواقفاً بجوار سريري. كانت الساعة الموجودة على المدفأة تشير إلى السابعة والربع، ولأنه كان معتاداً على الاستيقاظ المتأخر فقد نظرت إليه ببعض الدهشة، بل ربما بقليل من الاستياء لأنني نظامي في عاداتي.

قال هولمز:

أنا آسف جداً لأنني روعتك يا واطسون، ولكنه حظنا المشترك هذا الصباح؛ فقد روعت السيدة هدسون فردت الأمر عليَّ ثم رددته أنا عليك.

- ما هو الأمر إذن؟

حريق؟

- لا، بل عميل. يبدو أن شابة قد وصلت وهي في حالة من الانفعال الشديد وتصر على رؤيتي، وهي تنتظر الآن في غرفة

الجلوس. وعندما تتجول السيدات الصغيرات في المدن الكبيرة لتوقظ الناس بهذه الطريقة في هذا الوقت من الصباح وتخرجهم من أسرتهم فذلك يعني- كما أفترض- أن في الأمر شيئاً ملحاً. قد تكون قضية مثيرة للاهتمام وأنا متأكد أنك ستحب أن تتابعها من بدايتها، ولذلك فكرت أن عليَّ أن أوقظك لأمنحك الفرصة.

قلت:

يا صديقي العزيز، لن أفوتها بأي ثمن.

إن أكثر الأمور متعة بالنسبة لي هي متابعة هولمز في تحقيقاته المهنية، وكم يطربني أن أتأمل سرعة استنتاجاته التي يصل إليها بسرعة البديهيات، ومع ذلك فهي دائماً مبنية على أساس منطقي يستطيع به حل القضايا الموكولة إليه. لذلك فقد ارتديت ملابسي بسرعة وصرت جاهزاً في دقائق قليلة لمصاحبة صديقي إلى غرفة الجلوس في الطابق العلوي، وفور دخولنا هبت واقفة من مقعدها بجوار النافذة سيدة ترتدي السواد وتغطي وجهها بنقاب ثقيل.

قال هولمز بمرح:

صباح الخير يا سيدتي. أنا شيرولوك هولمز، وهذا هو صديقي الحميم

وزميلي الدكتور واطسون؛ يمكنك التحدث أمامه بنفس الحرية التي يمكنك التحدث بها أمامي.

حسناً، أنا سعيد لأن السيدة هدسون امتلكت من حسن التفكير ما دفعها إلى إشعال النار. أرجو أن تقتربي منها، وسأطلب لك كوباً من القهوة الساخنة لأنني ألاحظ أنك ترتجفين.

فقالت المرأة بصوت منخفض وهي تنتقل إلى كرسي آخر كما طلب منها:

ليس البرد ما يجعلني أرتجف.

- ما السبب إذن؟

- إنه الخوف يا سيد هولمز..... الرعب.

رفعت عن وجهها النقاب فاستطعنا أن نرى حقاً أنها في حالة اهتياج يدعو إلى الشفقة، فقد كان وجهها متعباً شاحباً وعيناها قلقتين خائفتين كعيني حيوان مطارد. كانت ملامحها وقوامها لا مرأة في الثلاثين من عمرها، بينما غزا الشيب المبكر شعرها وارتسم القلق والإرهاق على تعبيرات وجهها.

تفحصها شيرلوك هولمز بنظرة من نظراته الشاملة السريعة، ثم انحنى إلى الأمام وربت على كتفها وهو يقول مهدئاً: لا تخافي، فلا شك أننا سنضع الأمور في نصابها الصحيح قريباً. لقد أتيت بالقطار هذا الصباح كما أرى.

- أنت تعرفني إذن؟

- لا، ولكنني لاحظت في كف قفازك الأيسر النصف الثاني لتذكرة العودة. لابد أنك بدأت رحلتك مبكراً بالرغم من أنك قمت برحلة طويلة في عربة صغيرة بحصانين على طريق موحل قبل أن تصلي إلى المحطة.

جفلت السيدة بقوة وحدقت إلى رفيقي بذهول، فقال هولمز مبتسماً: ليس في الأمر غموض يا سيدتي العزيزة، فالذراع اليسرى لسترتك ملطخة بالوحل فيما لا يقل عن سبعة أماكن، والآثار كلها حديثة تماماً، والعربة الصغيرة ذات الحصانين هي المركبة الوحيدة التي تنثر الوحل إلى الأعلى بهذه الطريقة عندما تجلسين على جانب السائق الأيسر.

قالت: أياً كانت الأسباب التي دعتك إلى هذا الاستنتاج فأنت

على حق تماماً، فقد بدأت رحلتي من المنزل قبل السادسة ووصلت إلى محطة ليذرهيد في السادسة والثلث، ومنها انتقلت بأول قطار إلى محطة واترلو. فأنا يا سيدي لا أستطيع تحمل هذا التوتر أكثر من ذلك، وإذا استمر فسوف أجن بالتأكيد! ليس لي أحد ألجأ إليه... لا أحد سوى شخص واحد، شخص يهتم بأمري ولكنه لا يستطيع مساعدتي. لقد سمعت بك يا سيد هولمز من السيدة فارينتوش التي ساعدتها في وقت عصيب، وقد أخذت منها عنوانك. آه يا سيدي، أتظن أن بإمكانك مساعدتي أنا أيضاً؟ ليس بوسعي أن أكافئك على خدماتك في الوقت الحاضر، ولكن في خلال شهر أو ستة أسابيع سأتزوج وأتحكم في دخلي الخاص، ووقتها على الأقل لن تجدني جاحدة لمعروفك.

اتجه هولمز إلى مكتبه فسحب دفتراً يسجل فيه القضايا وبدأ يراجعه، ثم قال: فارينتوش؛ نعم، أذكر تلك القضية، كانت تتعلق بتاج الأوبال. أظن أنها كانت قبل أن أعرفك يا واطسون. كل ما يمكنني قوله- يا سيدتي- هو أنه يسعدني أن أكرس لقضيتك كل الاهتمام الذي أوليته لقضية صديقتك، أما بالنسبة للمكافأة فعملي هو مكافأة في حد ذاته، ولكن لك حرية دفع النفقات التي سأتكبدها في الوقت الذي يناسبك.

والآن أرجو منك أن تقصي علينا كل ما يمكن أن يساعدنا في تكوين رأي عن الموضوع.

فأجابت زائرتنا قائلة: للأسف إن ما يجعل موقفي أكثر رعباً هو حقيقة أن مخاوفي غير محدودة وشكوكي تعتمد كلياً على نقاط صغيرة قد تبدو تافهة في نظر الآخرين، حتى إن الشخص الوحيد الذي أملك الحق في اللجوء إليه وطلب نصيحته قد نظر إلى الأمر كما لو كان أوهام امرأة مجنونة! وبالرغم من أنه لم يقل ذلك صراحة إلا أنني استطعت أن أستشفه من إجاباته المهدئة وعينيه اللتين تتجنبان النظر إليَّ. ولكنني سمعت أنك تستطيع النظر بعمق في خبايا السر الموجود في النفس البشرية يا سيد هولمز، فهل يمكنك أن تنصحني حتى أستطيع المشي وسط الأخطار التي تحيط بي؟

– كلي انتباه يا سيدتي.

– اسمي هو هيلينا ستونر، وأنا أسكن حالياً مع زوج أمي، وهو الشخص الوحيد الباقي على قيد الحياة من عائلة من أقدم العائلات السكسونية في إنجلترا، وهي عائلة رويلوت التي كانت تقيم في ستوك موران على الحدود الغربية لمقاطعة صري.

هز هولمز رأسه وقال: الاسم ليس غريباً على مسامعي.

قالت: كانت هذه العائلة واحدة من أغنى العائلات في إنجلترا في وقت من الأوقات، وكانت ممتلكاتها تمتد إلى بيركشاير في الشمال وهامبشاير في الغرب. ثم تعاقب فيها في القرن الأخير أربعة من الورثة المبذرين والمقامرين، فانتهى أمر العائلة أخيراً ولم يبق لها إلا فدادين قليلة من الأرض ومنزل عمره مئتا عام يرزح تحت رهن ثقيل، وفيه قضى المالك الأخير أيامه في شقاء وهو يعيش حياة عصيبة كنبيل معدم. ولكن ابنه (أي زوج أمي) رأى أن عليه أن يهيئ لنفسه ظروفاً جديدة، فحصل على قرض من أحد الأقارب مكنه من الحصول على شهادة جامعية في الطب، ثم ذهب إلى الهند حيث استطاع- بمهارته المهنية وقوة شخصيته- تأسيس عيادة واسعة، ولكنه ارتكب جريمة حين ضرب رئيس خدمه حتى الموت في نوبة غضب سببتها بعض السرقات في المنزل، ثم أفلت من عقوبة الإعدام بأعجوبة رغم أنه قد عانى من فترة سجن طويلة، وعاد بعد ذلك إلى إنجلترا رجلاً يائساً حزيناً.

وحين كان الدكتور رويلوت في الهند تزوج أمي السيدة ستونر، وكانت أرملة اللواء ستونر الذي خدم في سلاح المدفعية في البنغال.

وقد كنت أنا وأختي جوليا (ونحن توأمتان) في السنة الثانية من عمرنا عندما تزوجت أمنا للمرة الثانية. وكانت أمنا في ذلك الوقت تملك مبلغاً كبيراً من المال لا يقل دخله عن ألف جنيه في العام، وقد أوصت بهذا المبلغ كله للدكتور ورويلوت ما دمنا نقيم معه، مع شرط بأن يتم تخصيص مبلغ سنوي محدد لنا عند زواجنا. ثم توفيت والدتنا بعد عودتنا إلى إنجلترا بوقت قصير، فقد ماتت في حادثة على السكة الحديدية قرب كرو منذ ثمانية أعوام، وعندها تخلى الدكتور رويلوت عن محاولاته لإثبات نفسه في عيادة بلندن وأخذنا لنعيش معه في منزل أجداده القديم في ستوك موران، حيث كان المال الذي تركته أمنا كافياً لسد كافة احتياجاتنا، وبدا أننا سنعيش في سعادة بلا أية عقبات. ولكن تغيراً رهيباً طرأ على زوج والدتنا في تلك الفترة، فبدلاً من أن يعقد الصداقات مع الناس ويتبادل الزيارات مع الجيران (الذين سعدوا جداً في البداية لرؤية و احد من افراد عائلة رويلوت وقد عاد إلى الإقامة في مقر العائلة القديم) قام بعزل نفسه في داخل المنزل وأصبح نادراً ما يخرج إلا للدخول في نزاعات شرسة مع أي شخص قد يقابله. إن الطبع العنيف الذي يكاد يصل إلى حد الهوس وراثي عند رجال

العائلة، وقد ازداد الأمر حدة في حالة زوج أمي- في اعتقادي- بسبب إقامته الطويلة في المناطق المدارية في الهند. وبسبب طباعه الحادة دخل زوج أمي في سلسلة من المشاجرات المخزية انتهت اثنتان منها في محكمة الجنح، حتى صار أخيراً رمزاً للرعب في القرية وصار الناس يهربون عند اقترابه، لأنه رجل ذو قوة كبيرة ولا يكاد يستطيع التحكم في غضبه.

وقد وقعت أحدث المشكلات حيث قام بإلقاء حداد القرية من فوق الجسر إلى النهر في الأسبوع الماضي، ولم أتمكن من تفادي فضيحة جديدة إلا بعد أن دفعت كل المال الذي استطعت جمعه. إنه لا يملك أي أصدقاء على الإطلاق ما عدا الغجر الرحالة، فهو يسمح لهؤلاء المتشردين بإقامة معسكرهم على الفدادين القليلة المكسوة بالشجر الشائك التي تمثل ممتلكات العائلة، ويقبل في المقابل أن يستضيفوه في خيامهم، وقد يهيم معهم في بعض الأحيان لأسابيع متصلة، كما أنه يهوى أيضاً الحيوانات الهندسية التي أرسلت إليه، وهو يمتلك الآن فهداً وقرداً يتجولان بحرية على أراضيه ويخاف منهما القرويون بنفس درجة خوفهم من سيدهما تقريباً.

يمكنك أن تتخيل- مما قلته- أنني وأختي المسكينة جوليا لم نحظ بقدر وافر من السعادة في حياتنا، فلم يستمر معنا أي من الخدم واضطررنا إلى القيام بكل العمل المنزلي لوقت طويل. وبالرغم من أن أختي لم تكن قد جاوزت الثلاثين من عمرها عندما ماتت إلا أن الشيب كان قد بدأ يدب في شعرها مثلما حدث مع شعري.

سأل هولمز: لقد ماتت أختك إذن؟

- منذ عامين فقط، وهذا هو الموضوع الذي أود أن أحدثك بخصوصه. يمكنك أن تتوقع أن فرصتنا في مقابلة من هم في مثل سننا ومركزنا كانت ضئيلة للغاية بسبب نوعية حياتنا التي وصفتها لك. على أية حال كانت لدينا خالة، هي أخت أمي التي لم تتزوج واسمها هونوريا وستفيل وتعيش بالقرب من هارو، وكان مسموحاً لنا أن نزور منزلها زيارات قصيرة من حين إلى آخر، وقد ذهبت جوليا إلى هناك في عيد الميلاد منذ عامين حيث قابلت رائداً في البحرية يعمل بنصف أجر وتمت خطبتها له، وعلم زوج أمي بالخطبة بعد عودة شقيقتي فلم يعترض على الزواج، ولكن حادثاً رهيباً وقع قبل أسبوعين من اليوم الذي تم تحديده للزفاف فحرمني من رفيقتي الوحيدة.

كان شيرلوك هولمز يميل إلى الخلف في كرسيه وهو مغلق عينيه ورأسه يغوص في وسادة، إلا أنه فتح جفنية قليلاً في تلك اللحظة ونظر إلى زائرته قائلاً: أرجو أن تكوني دقيقة في سردك للتفصيلات.

– ومن السهل عليَّ أن أكون كذلك؛ فكل ما حدث في تلك الفترة مطبوع في ذاكرتي. إن المنزل الريفي قديم جداً كما قلت لك، وفيه جناح واحد قابل للسكنى في الوقت الحالي، وغرف النوم في هذا الجناح تقع في الطابق الأرضي بينما تقع غرف الجلوس في وسط البناء. أول غرف النوم تلك هي غرفة الدكتور رويلوت، والثانية غرفة أختي، أما الثالثة فغرفتي، وليس بين الغرف أي اتصال ولكنها تفتح على الممر نفسه. هل ما قلته واضح؟

– تماماً.

– نوافذ الغرف الثلاث تطل كلها على المرج العشبي. وفي الليلة المشؤومة ذهب الدكتور رويلوت إلى غرفته مبكراً، ومع ذلك فقد عرفنا أنه لم يأو إلى فراشه لأن أختي شعرت بانزعاج من رائحة التبغ الهندي الذي كان من عادته تدخينه، ولذلك تركت غرفتها وجاءت إلى غرفتي فجلست معي لبعض الوقت وتحدثنا عن زفافها الذي اقترب

موعده. وقد قامت في الساعة الحادية عشرة لتتركني، ولكنها توقفت عند الباب ونظرت إلى الخلف وقالت: أخبريني يا هيلين، هل سبق لك أن سمعت شخصاً يصفر في عمق الليل؟

فقلت: مطلقاً.

– هل يمكن أن تصفري أنت في أثناء نومك؟

– بالتأكيد لا. ولكن لماذا؟

– لأنني كنت أسمع صوت صفارة واضحاً ومنخفضاً في الساعة الثالثة صباحاً خلال الليالي القليلة الماضية جميعاً. إن نومي خفيف ولذلك فقد أيقظني الصوت مراراً، ولكنني لا أستطيع تحديد مصدره، فربما كان قادماً من الغرفة المجاورة وربما كان من ناحية المرج العشبي، وهكذا فكرت في أن أسألك إن كنت قد سمعته.

– لا، لم أسمع. لا بد أنهم هؤلاء الغجر الأشقياء في المزرعة.

– هذا محتمل، ولكنني أتساءل لماذا لا تسمعينه أنت أيضاً إن كان يأتي من ناحية المرج العشبي!

– ربما لأن نومي أثقل من نومك.

– حسناً، ليس للأمر أهمية كبيرة.

ثم ابتسمت لي وأغلقت بابي، وبعد لحظات قليلة سمعتها تدير المفتاح في قفل غرفتها.

قال هولمز: حقاً؟ هل كان من عادتكما دائماً أن تغلقا على نفسيكما بالمفتاح؟

– دائماً.

– ولماذا؟

– ذكرت لك أن زوج أمي يحتفظ بفهد وقرد، ولذلك كنا لا نشعر بالأمان ما لم نغلق الأبواب.

– حسناً، أرجو أن تكملي روايتك.

قالت: لم أستطع النوم تلك الليلة؛ فقد داهمني شعور غامض بقرب حدوث بلية، فأنا وشقيقتي توأم كما قلت لك من قبل، وأنت تعرف كيف تكون الصلة دقيقة بين شخصين مرتبطين بمثل هذه الصلة الوثيقة. كانت ليلة موحشة، فقد راحت الرياح تعوي في الخارج والمطر يضرب بقوة على النوافذ، وفجأة انفجرت وسط ضجيج

العاصفة صرخة هائجة لا مرأة مروعة، وأدركت أنه صوت أختي فقفزت من سريري وتلفحت بشال ثم أسرعت إلى الممر. وعندما فتحت باب غرفتي بدا لي أنني سمعت صوت صفارة منخفض كالذي وصفته أختي، ثم سمعت بعد لحظات قليلة قرقعة كما لو كان صوت سقوط كتلة من المعدن، وعندما أسرعت عبر الممر وجدت أن باب غرفة أختي مفتوح ويدور حول مفصلاته ببطء، فحدقت إليه برعب لأنني لم أعرف ما الذي سيخرج منه، ولكنني رأيت أختي تظهر على عتبة الباب في ضوء مصباح الممر ووجهها ممتقع من الرعب ويداها تتلمسان المساعدة وجسدها يتمايل إلى الأمام والخلف كشخص ثمل، فأسرعت إليها وأحطتها بذراعي، ولكن في تلك اللحظة بدا وكأن ركبتيها قد خذلتها فسقطت على الأرض، وأخذت تتلوى كمن يعاني ألماً شديداً وأطرافها تهتز بشدة. وقد فكرت في البداية أنها لم تعرفني، ولكن بينما كنت أنحني عليها صرخت فجأة بصوت لن أنساه أبداً وقالت: آه، يا إلهي! هيلينا، إنها العصابة.... العصابة الرقطاء!

أرادت قول شيء آخر وأشارت بإصبعها في الهواء باتجاه غرفة زوج أمي، ولكن موجة جديدة من التشنجات انتابتها فاختنقت كلماتها.

عندئذ أسرعت خارجة من الغرفة وأخذت أنادي زوج أمي بصوت عال، فخرج مسرعاً من غرفته مرتدياً رداء النوم. وكانت أختي فاقدة الوعي حين وصل إليها، وبالرغم من كل محاولاته ورغم أنه أرسل في طلب المساعدة الطبية من القرية إلا أن كل تلك الجهود ذهبت هباء، فقد انهارت أختي ببطء وماتت دون أن تستعيد وعيها، وكانت تلك هي النهاية المريعة لأختي الحبيبة.

قال هولمز: لحظة واحدة، هل أنت متأكدة من أنك سمعت الصفارة والصوت الذي يشبه صوت سقوط كتلة من المعدن؟ أتقسمين على ذلك؟

– هذا هو ما سألني عنه الطبيب الشرعي في أثناء التحقيق. لقد غلب عليَّ انطباع بأنني سمعت هذه الأصوات، ولكن يمكن طبعاً أن أكون قد توهمت سماعها بسبب صخب العاصفة وصرير البيت القديم.

– هل كانت أختك مرتدية ملابس الخروج؟

– لا، بل كانت في ملابس النوم، وقد وجدنا في يدها اليمني بقايا

عود متفحم من الكبريت وفي يدها اليسرى علبة الكبريت.

– مما يظهر أنها أشعلت النور ونظرت حولها عندما وقع الهجوم المفاجئ. هذا مهم. وما هي النتيجة التي توصل إليها الطبيب الشرعي.

– لقد درس القضية باهتمام كبير لأن الدكتور رويلوت كان مشهوراً بسوء تصرفاته منذ زمن طويل، ولكنه لم يتمكن من التوصل إلى سبب مقنع للوفاة. وقد أظهرت شهادتي أن الباب كان مقفلاً من الجهة الداخلية وأن النوافذ كانت مزودة بمصاريع قديمة الطراز ذات قضبان حديدية عريضة يتم إغلاقها بإحكام كل ليلة، وفحصت الجدران بدقة فتبين أنها مصمتة تماماً، كما عاينوا الأرضيات بشكل كامل وصولاً إلى النتيجة نفسها. ورغم أن المدخنة واسعة إلا أنها مغطاة بشبك عريض، ولذلك فمن المؤكد أن أختي كانت وحيدة تماماً عندما واجهت مصيرها، بالإضافة إلى عدم وجود آثار عنف على جسمها.

– وماذا عن السم؟

– لقد فحصها الطبيب بحثاً عن أثر للسم ولكن بلا نتيجة.

– وما الذي تسبب في وفاة أختك باعتقادك؟

– أعتقد أنها ماتت من شدة الرعب وبسبب الصدمة العصبية، بالرغم من أنني لا أستطيع تصور الشيء الذي أخافها.

– هل كان في المزرعة غجر في ذلك الوقت؟

– نعم، ففيها بعض منهم بشكل دائم تقريباً.

– وماذا فهمت من هذا التلميح عن العصابة الرقطاء؟

– أفكر في بعض الأحيان أنه كان مجرد كلام نتج عن الهذيان، وفي أحيان أخرى أظن أنها ربما كانت تشير إلى عصابة من الناس، وربما إلى هؤلاء الغجر في المزرعة. لعل المناديل المرقطة التي يضعها كثير منهم قد أوحت إليها بتلك الصفة الغريبة التي استخدمتها.

هز هولمز رأسه كشخص أبعد ما يكون عن الاقتناع، ثم قال: إنه أمر غامض، أرجو أن تكملي قصتك.

– لقد مر عامان على تلك الحادثة وسادت الوحشة حياتي أكثر من أي فترة مضت، وبقيت كذلك حتى وقت قريب، فمنذ شهر شرفني صديق عزيز كنت أعرفه منذ سنوات بطلب يدي للزواج إن اسمه

أرميتاج، بيرسي أرميتاج، وهو الابن الثاني للسيد أرميتاج من كرين ووتر بالقرب من ريدنغ. ولم يعترض زوج أمي على الزواج الذي سوف يتم في بداية الربيع، وقد بدأت منذ يومين بإجراء بعض الإصلاحات في الجناح الغربي من المبنى، وثقب جدار غرفتي فاضطررت إلى الانتقال إلى الغرفة التي ماتت فيها أختي لأنام على السرير الذي كانت تنام عليه. ولك أن تتصور مدى الرغب الذي انتابني عندما استلقيت وأنا مستيقظة أفكر في نهايتها الفظيعة فسمعت فجأة- في سكون الليل- نفس الصفارة المنخفضة التي كانت نذيراً لموتها، فقفزت واقفة وأشعلت المصباح، ولكنني لم أر في الغرفة شيئاً. لقد هزني ما حدث حتى إنني لم أستطع أن أخلد إلى النوم مرة أخرى، فارتديت ملابسي وتسللت حالما طلع النهار فاستأجرت عربة صغيرة من مقهى كراون الواقع في الجهة المقابلة، واتجهت إلى ليذرهيد ومنها أتيت إلى هنا هذا الصباح ولي هدف واحد، هو رؤيتك وطلب نصيحتك.

قال صديقي هولمز: لقد تصرفت بحكمة، ولكن هل أخبرتني بكل شيء؟

- نعم، بكل شيء.

– بل لم تفعلي يا آنسة رويلوت؛ إنك تتسترين على زوج أمك.

– ماذا تقصد؟

جواباً على سؤالها دفع هولمز حافة القماش الأسود المزركش الذي يغطي اليد التي تضعها زائرتنا على ركبتها، فرأينا خمس بقع زرقاء، علامات أربع أصابع وإبهام، مطبوعة على معصمها الأبيض. قال هولمز: لقد تمت الإساءة إليك بقسوة.

فاحمر وجه الفتاة بشدة وغطت معصمها المصاب وقالت: إنه رجل قاس، وقد لا يعرف مقدار قوته.

ساد الصمت لوقت طويل أسند خلاله هولمز ذقنه على يديه وأخذ يحدق إلى النار المستعرة، ثم قال أخيراً: إنها قضية معقدة جداً، وثمة تفصيلات كثيرة أرغب في معرفتها قبل أن أقرر الاتجاه الذي سنتحرك على أساسه، إلا أننا لا نملك دقيقة لنضيعها، فهل يمكننا أن نرى هذه الغرف دون علم زوج أمك لو ذهبنا إلى ستوك موران هذا اليوم؟

– من محاسن المصادفات أنه تحدث عن مجيئه إلى المدينة اليوم في عمل مهم، ومن المحتمل أن يظل بعيداً طوال اليوم، وهكذا لن

يزعجك شيء. إن لدينا الآن مدبرة للمنزل، ولكنها عجوز حمقاء ويمكنني إبعادها عن طريقكما بسهوله.

– ممتاز. ألديك اعتراض على هذه الرحلة يا واطسون؟

– على الإطلاق.

– سنذهب معاً إذن، وماذا ستفعلين أنت؟

– أتمنى الآن القيام بأمر أو اثنين ما دمت هنا في المدينة، ولكنني سأعود في قطار الساعة الثانية عشرة لأكون هناك عند وصولكما.

– يمكنك أن تتوقعي حضورنا في وقت مبكر من بعد الظهر، فلدي أنا أيضاً بعض الأمور البسيطة التي يجب أن أهتم بها. ألا تنتظرين لتناول الإفطار؟

– يجب أن أذهب. لقد خف الحمل عن قلبي بالفعل منذ أن بحت لكما بمشكلاتي، وأنا أتطلع إلى رؤيتكما ثانية بعد ظهر هذا اليوم.

ثم أنزلت على وجهها الغطاء الأسود الثقيل وخرجت من الغرفة بخفة.

قال هولمز وهو يميل في كرسيه إلى الخلف: ما رأيك في الأمر كله

يا واطسون؟

– يبدو لي أنها قضية غامضة وتنذر بالشر.

– نعم، إنها غامضة وتوحي بكثير من الشر.

– ولكن إذا صح ما تقوله السيدة بشأن الجدران والأرضيات والباب والنافذة والمدخنة فلا بد إذن أن أختها كانت وحيدة تماماً عندما لقيت نهايتها الغامضة.

– وماذا عن الصفير الليلي والكلمات الغريبة التي تلفظت بها الأخت وهي في النزع الأخير؟

– لا أعلم.

– إذا فكرنا بالصفير الليلي مع وجود عصابة من الغجر ترتبط بعلاقة قوية مع هذا الطبيب، بالإضافة إلى أننا نملك من الأسباب ما يجعلنا نصدق أن للطبيب مصلحة في منع زواج ابنتي زوجته، وإلى الإشارة التي أشارتها الفتاة الميتة إلى العصابة، وأخيراً إلى حقيقة أن الآنسة هيلينا ستونر قد سمعت صوت رنين معدني ربما كان مصدره أحد تلك الحواجز المعدنية التي تغلق المصاريع وهو يعود إلى مكانه...

إذا فكرنا بذلك كله فأعتقد أن لدينا سبباً جيداً للاعتقاد بأن حل اللغز يكمن في هذه السلسلة المريبة من الأحداث.

- ولكن ما الذي فعله الغجر؟

- لا يمكنني الجزم بذلك الآن.

- أرى الكثير من الاعتراضات على مثل هذه النظرية.

- وأنا كذلك، ولهذا السبب بالتحديد سنذهب إلى ستوك موران اليوم، فأنا أريد أن... ما هذا؟!

صدر هذا الهتاف عن صديقي حين فتح بابنا فجأة بعنف ووقف أمامنا رجل ضخم. كانت ملابسه مزيجاً غريباً من ملابس المزارعين وأصحاب المهن، فقد ارتدى قبعة ر سمية سوداء وسترة رسمية طويلة وحذاء طويل الساق، وكان يؤرجح في يده سوطاً قصيراً، وقد كان طويلاً جداً لدرجة أن قبعته لامست أعلى مدخل الباب وعريضاً لدرجة أنه أغلق الباب بجسمه تماماً. وقف وأخذ يدير وجهه العريض الممتلئ بالتجاعيد والمصفر من لفح الشمس من أحدنا إلى الآخر وقد كسته ملامح الشر، أما عيناه العميقتان فراحتا تقذفاننا بالنظرات

الغاضبة، وأعطاه أنفه النحيل الشامخ مظهر طائر جارح عجوز!

قال: أيكما يدعى هولمز؟

فقال رفيقي بهدوء: إنه اسمي يا سيدي، ولكنني لم أتشرف بمعرفتك.

– أنا الدكتور غريمسباي رويلوت.

فقال هولمز باسترخاء: حقاً؟ طبيب؟ أرجو أن تجلس.

– لن أجلس بالطبع. لقد كانت ابنة زوجتي هنا، فقد تتبعتها. ماذا قالت لك؟

قال هولمز: إن الجو بارد بالنسبة لهذا الوقت من السنة.

فصاح العجوز بشراسة: ما الذي قالته لك؟

فتابع رفيقي برباطة جأش قائلاً:

ولكنني سمعت أن الزعفران مزدهر.

قال: زائرنا الجديد وهو يتقدم خطوة إلى الأمام ويهز سوطه القصير: ها، إنك تحاول تضليلي، أليس كذلك؟

أنا أعرفك أيها الوغد فقد سمعت عنك من قبل. أنت هولمز الذي

يتدخل فيما لا يعنيه.

فابتسم صديقي.

- هولمز الفضولي!

اتسعت ابتسامة هولمز.

- هولمز المخبر الذي يعمل مع الشرطة البريطانية.

قهقه هولمز بحرارة وقال:

محادثتك ممتعة جداً. أرجو أن تغلق الباب عندما تغادر فهناك تيار هوائي واضح.

- سأذهب عندما أقول ما أريد. إياك والتدخل في شؤوني، فأنا أعرف أن الآنسة ستونر كانت هنا. لقد تتبعتها. إن من الخطر معاداتي.... انظر.

ثم خطا إلى الإمام بسرعة وأخذ عصا المدفأة فثناها بيديه الكبيرتين حتى تقوست، ثم زمجر قائلاً: حاذر أن تقع في قبضتي.

ثم رمى العصا الملتوية في المدفأة وغادر الغرفة، فقال هولمز ضاحكاً: يبدو أنه رجل لطيف!

وبالرغم من أنني لست بمثل هذه الضخامة إلا أنني كان يمكن أن أظهر له- لو بقي معنا قليلاً- أن قبضتي ليست أضعف من قبضته بكثير.

وفيما هو يتحدث قام بالتقاط العصا الفولاذية فأعاد إليها شكلها ثانية، ثم قال: تصور كيف امتلك الوقاحة ليخلط بيني وبين رجال الشرطة الرسميين!

لقد زادت هذه الحادثة من متعة تحقيقنا، وعلى أية حال فأنا واثق أن صديقتنا الصغيرة لن تعاني من حماقتها حين سمحت لهذا الوحش بتتبعها. والآن يا واطسون، سنطلب الإفطار ثم سأذهب للحصول على بعض المعلومات التي قد تساعدنا في هذه القضية.

كانت الساعة قد قاربت الواحدة حين عاد شيرلوك هولمز من رحلته القصيرة، وكان يحمل في يده ورقة زرقاء ممتلئة بالملاحظات والأرقام المكتوبة بخط مستعجل. قال:

لقد رأيت وصية الزوجة المتوفاة، وقد اضطررت إلى تقدير الأسعار الحالية للاستثمارات المعنية حتى أحدد المدلول الدقيق للوصية،

فالدخل الكلي الذي كان يقارب ألفاً ومئة جنيه وقت وفاة الزوجة أصبح الآن لا يتجاوز سبعمئة وخمسين جنيهاً بسبب تدهور الأسعار الزراعية. ولما أن لكل ابنة الحق في المطالبة بمئتين وخمسين جنيهاً في حالة الزواج فمن الواضح أن زواجهما معاً سيحرمه من حصة كبيرة من دخله ويبقيه مفلساً تقريباً، وحتى لو تزوجت واحدة منهما فقط فسوف ينقص دخله بدرجة كبيرة.

سكت برهة ثم أكمل قائلاً:

إن عملي الصباحي لم يذهب هباء، فقد أثبت أن هذا الطبيب الشرس يملك أقوى الدوافع للوقوف في طريق أي زواج للفتاتين. حسناً يا واطسون، إن هذا الأمر خطير جداً ولا يحتمل التأخير، لا سيما وأن الرجل بات مدركاً أننا مهتمون بشؤونه، ولهذا فإن كنت جاهزاً فسنطلب عربة لتقلنا إلى محطة واترلو في الحال، وسأكون ممتناً لو أحضرت مسدسك في جيبك لأنه سيكون مساعداً ممتازاً في النقاش مع سيد يستطيع أن يلوي عصا مدفأة فولاذية، وسيكون المسدس وفرشاة الأسنان هما كل ما نحتاجه على ما أظن.

حالفنا الحظ في محطة واترلو فاستطعنا اللحاق بقطار متجه إلى

ليذرهيد، وهناك استأجرنا عربة خفيفة من المحطة فركبناها لمسافة أربعة أميال على طول صري اللطيف.

كان يوماً مثالياً أشرقت شمسه وانتشرت في سمائه بعض السحب الرقيقة، كما بزغت البراعم الخضراء على الأشجار والشجيرات الموجودة على جانب الطريق وعبق الجو برائحة لطيفة للأرض الرطبة، وبدا لي مدى التناقض الغريب بين بشائر الربيع اللطيفة وبين هذا التحقيق المشؤوم الذي نعمل فيه.

جلس رفيقي في مقدمة العربة وقد عقد ذراعيه على صدره وسحب قبعته على عينيه وأرخى ذقنه على صدره وغرق في تفكير عميق، ثم تحرك فجأة فربت على كتفي وأشار إلى المراعي قائلاً:

انظر هناك.

كانت الأرض هناك مغطاة بالأشجار وتمتد إلى الأعلى في انحدار بسيط يزداد كثافة عند أعلى نقطة حيث تتكاثف الأشجار، ومن وراء الفروع برز سقف عال لقصر عتيق جداً.

قال هولمز:

ستوك موران؟

فأجاب السائق:

نعم يا سيدي، وهذا المنزل للدكتور غريمسباي رويلوت.

قال هولمز:

إن بعض أعمال البناء تجري في هذا البيت، وإليه نحن ذاهبان.

فقال السائق وهو يشير إلى مجموعة من الأسقف الظاهرة من بعيد على اليسار:

هناك تقع القرية، ولكن إذا أردت أن تصل إلى المنزل فسوف تختصر الطريق إذا قفزت فوق هذا السياج ثم سرت في ممر المشاة عبر الحقول. ها هو الممر هناك، حيث تمشي السيدة.

فقال هولمز وهو يحجب الشمس عن عينيه:

وهذه السيدة هي الآنسة ستونر كما أتخيل. نعم، من الأفضل أن ننفذ اقتراحك.

نزلنا ودفعنا الأجرة فقرقعت العربة عائدة إلى ليذرهيد، وقال هولمز ونحن نتسلق السياج:

لقد فضلت أن يظن الرجل أننا جئنا إلى هذا البيت للمشاركة في أعمال البناء، وهذا يمكن أن يمنعه من الثرثرة.

ثم قال يخاطب الآنسة ستونر:

مساء الخير يا آنسة ستونر. أرأيت كيف حافظنا على كلمتنا؟

فأسرعت عميلة الصباح نحونا لتقابلنا ووجهها ينم عن الفرحة، وصاحت بحرارة:

كنت أنتظركما بلهفة. لقد سارت الأمور على نحو رائع، فقد ذهب الدكتور رويلوت إلى المدينة ومن غير المحتمل أن يعود قبل المساء.

فقال هولمز:

لقد أسعدنا الحظ وتعرفنا على الدكتور.

ثم شرح لها ما حدث في كلمات قليلة، فشحب وجه الآنسة ستونر وهي تنصت ثم صاحت قائلة:

يا إلهي!

لقد تبعني إذن؟

- هذا ما يبدو.

– إنه ماكر جداً لدرجة أنني لا أعرف متى أكون بأمان معه. ماذا سيقول عند عودته؟

– يجب أن ينتبه لنفسه، فقد يجد في أثره من هو أمكر منه. يجب أن تغلقي على نفسك الباب الليلة لتبتعدي عنه، أما إذا تصرف بعنف فسنأخذك إلى خالتك في هارو.

والآن يجب أن نحسن استغلال الوقت، ولذلك أرجو أن ترشدينا إلى الغرف التي يجب علينا فحصها.

كان المبني من الحجارة الرمادية المكسوة بالنبات الأخضر، وقد تكون من جزء مركزي مرتفع وجناحين مقوسين مثل مخالب السرطان البحري على كل جانب.

وقد كان سطح أحد هذين الجناحين منهاراً بشكل جزئي وزجاج النوافذ مكسوراً وقد سدت النوافذ نفسها بالألواح الخشبية، وكان الجزء الأوسط في حالة أفضل قليلاً، أما المبني الواقع على الجانب الأيمن فكان حديثاً نسبياً وتدل الستائر الموجودة على نوافذه والدخان الأزرق المتصاعد من مداخنه على أنه مكان إقامة الأسرة.

رأينا بعض السقالات المنصوبة بجانب الجدار ولكن لم أشاهد أي دليل على وجود عمال في وقت زيارتنا.

مشى هولمز ببطء ذهاباً وغياباً على طول المرج وفحص النوافذ من الخارج بعناية شديدة، ثم قال:

أظن أن هذه هي نافذة الغرفة التي أعتدت النوم فيها، والوسطى هي غرفة أختك، والمجاورة للمبنى الرئيسي هي غرفة الدكتور رويلوت.

- تماماً، ولكنني أنام الآن في الغرفة الوسطى.

- في انتظار انتهاء الإصلاحات كما فهمت بالمناسبة، لا أرى حاجة ملحة لإجراء التصليحات في ذلك الجدار الأخير.

- لم تكن هناك حاجة لذلك، ولعله كان عذراً لإخراجي من غرفتي.

- آه! إن لهذا الأمر دلالات. والآن على الجانب الآخر من هذا الجناح الضيق يمتد الممر الذي تفتح عليه هذه الغرف، وتوجد نوافذ فيه بالطبع.

- نعم، ولكنها صغيرة جداً ولا تتسع لمرور أي شخص.

- وبما أنكما أغلقتما بابيكما في أثناء الليل فقد كان من المستحيل الوصول إلى الغرفتين من ذلك الجانب.

والآن هل تتكرمين بالذهاب إلى غرفتك وإحكام إغلاق مصراع النافذة بالمزلاج؟

فعلت الآنسة ستونر ما طلبه، وبعد أن قام هولمز بفحص دقيق للنافذة المفتوحة حاول بكل طريقة فتح المصراع عنوة ولكن بلا نجاح، فلم يكن هناك شق يمكن من خلاله إدخال سكين لرفع المزلاج.

وبعد ذلك فحص هولمز المفصلتين بعدسته المكبرة، ولكنهما كانتا من الحديد الصلب ومثبتتين بقوة في المبنى الضخم.

قال هولمز وهو يحك ذقنه ببعض الحيرة:

حسناً، إن نظريتي تواجه بعض الصعوبات بالتأكيد، فلا يمكن لأي شخص أن يفتح هذه المصاريع إذا كانت مغلقة بالمزلاج. لنر ما إذا كنا سنجد ما يوضح الأمر في الداخل.

قاد باب جانبي صغير إلى الممر المطلي باللون الأبيض والذي تفتح

عليه أبواب الغرف، ورفض هولمز أن يفحص الغرفة الثالثة، وهكذا اتجهنا مباشرة إلى الغرفة الثانية، تلك التي تقيم فيها الآنسة ستونر مؤقتاً والتي لقيت فيها أختها مصيرها. كانت غرفة صغيرة بسيطة ذات سقف منخفض ومدفأة واسعة وفقاً لطراز المنازل الريفية القديمة، وفي إحدى الزوايا صندوق بني كبير فيه أدراج لوضع الملابس وسرير على الجانب الأيسر للنافذة.

كان هذا هو كل الأثاث الموجود في الغرفة مع كرسيين صغيرين من الخيرزان وسجادة مربعة في وسط الغرفة، وكانت الأرضيات والألواح التي تزين الجدران من خشب البلوط البني المتآكل التي كانت شديدة القدم ولونها متغير لدرجة أنها قد تكون من عمر المبني الأصلي.

سحب هولمز أحد الكراسي إلى ركن الغرفة وجلس صامتاً وهو يدور بعينيه في الغرفة كلها ليدرس كل تفصيلاتها، وأخيراً سأل وهو يشير إلى حبل يتدلى بجانب السرير وطرفه على الوسادة:

أين يدق هذا الجرس؟

- يدق في غرفة مديرة المنزل.

- يبدو أنه أحدث من الأشياء الأخرى.

- نعم، لقد وضع هنا منذ عامين فقط.

- هل كانت أختك هي التي طلبته؟

- لا، لم أسمع أنها استخدمته قط، فقد اعتدنا على إحضار ما نريده بأنفسنا.

- حقاً، يبدو أنه من غير الضروري أن يوضع مثل هذا الحبل اللطيف للجرس هنا. أرجو أن تعذروني لدقائق قليلة حتى أتأكد من هذه الأرضية.

ثم استلقي على الأرض ووجهه إلى الأسفل وعدسته المكبرة في يده، وأخذ يزحف بسرعة إلى الأمام وإلى الخلف وهو يفحص الشقوق الموجودة بين الألواح بدقة، ثم قام بنفس الأمر مع الألواح الخشبية التي كانت تغطي جدران الغرفة، وأخيراً سار إلى السرير وأمضى بعض الوقت وهو يحدق إلى حبل الجرس ويدرس الجدار بعينيه من أعلى ومن أسفل، وبعد ذلك أخذ حبل الجرس في يده وشده بسرعة.

ثم أطلق صيحة تعجب وقال:

إنه مزيف!

- ألن يرن؟

- لن يرن؛ فهو غير موصول بأي سلك!

إن هذا الأمر مثير للاهتمام بشكل كبير، ويمكنك أن تشاهدي أنه مربوط بخطاف فوق فتحة التهوية الصغيرة مباشرة.

- يا له من أمر غريب!

لم ألحظ ذلك من قبل مطلقاً.

غمغم هولمز وهو يشد الحبل قائلاً:

غريب جداً! إن في هذه الغرفة بعض الحقائق الغريبة؛ فعلى سبيل المثال لا بد أن يكون البناء أحمق حتى يصل فتحة التهوية بغرفة أخرى في حين أنه كان يستطيع بلوغ الهواء الخارجي بنفس المجهود.

قالت السيدة:

هذا أيضاً عمل حديث تماماً.

فعلق هولمز قائلاً:

وهل تم إنجازه في نفس الوقت مع حبل الجرس؟

– نعم، لقد نفذت عدة تغييرات صغيرة في ذلك الوقت.

– ويبدو أن هذه التغييرات كانت ذات خصائص مثيرة للاهتمام؛ حبل جرس مزيف، وفتحات تهوية لا تهوي! بعد إذنك، سنكمل بحثنا في الغرفة الداخلية.

كانت غرفة الدكتور رويلوت أوسع من غرفة ابنة زوجته ولكنها مفروشة بالبساطة نفسها؛ سرير ضيق، ورف خشبي صغير مليء بالكتب التي يغلب على معظمها الطابع العلمي، وكرسي بذراعين، وخزانة بجانب السرير، وكرسي خشبي بسيط بجوار الجدار، بالإضافة إلى طاولة دائرية وخزنة حديدية كبيرة.

مشى هولمز ببطء وتفحص كل هذه الأشياء باهتمام شديد، ثم سأل وهو يدق على الخزنة قائلاً:

ماذا يوجد هنا؟

– أوراق عمل زوج أمي.

– أرأيت ما بداخلها إذن؟

– مرة واحدة فقط، منذ عدة سنوات، وأذكر أنها كانت ممتلئة

بالأوراق.

– ألا توجد فيها قطة على سبيل المثال؟

– قطة؟!

يا لها من فكرة غريبة!

أشار هولمز إلى صحن صغير كان موضوعاً فوق الخزنة وفيه قليل من الحليب وقال: حسناً، انظري إلى هذا.

– لا، نحن لا نربي قططاً، ولكن يوجد فهد وقرد.

– آه، نعم، بالطبع. حسناً، إن الفهد قطة كبيرة، ولو أنني أعتقد أن صحن اللبن صغير جداً ولن يلبي حاجته. بقيت نقطة واحدة أرغب في فحصها.

جلس هولمز القرفصاء أمام الكرسي الخشبي وفحصه بعناية شديدة، ثم قال وهو يقف ويضع عدسته في جيبه:

شكراً، لقد انتهيت من هذا الأمر... يا للعجب، ها هو شيء مثير للاهتمام!

كان الشيء الذي جذب انتباهه سوطاً صغيراً للكلاب معلقاً في

إحدى زوايا السرير، وكان السوط ملفوفاً حول نفسه ومربوطاً بحيث أصبح مثل أنشوطة من الحب المجدول.

– ما الذي تستنتجه من هذا يا واطسون؟

– إنه سوط عادي، ولكنني لا أعرف لماذا هو مربوط هكذا.

– هذا ليس بالأمر العادي، أليس كذلك؟

آه، إنه عالم شرير، فعندما يوجه رجل ماهر ذكاءه إلى الجريمة فهذا من أسوء الأمور. أظن أنني رأيت ما يكفي الآن يا آنسة ستونر، وسنخرج لنمشي على المرج العشبي.

لم يسبق أن رأيت وجه صديقي بمثل هذا التجهم والعبوس كما رأيته ونحن نغادر مسرح هذا التحقيق.

مشينا ذهاباً وإياباً عدة مرات على المرج العشبي، ولم أرغب أنا والآنسة ستونر في قطع حبل تفكيره قبل أن يفيق من أحلام اليقظة، وأخيراً قال:

من الضروري جداً يا آنسة ستونر أن تتبعي نصيحتي بحذافيرها.

– سأفعل ذلك بكل تأكيد.

– إن الأمر خطير جداً ولا يحتمل أي تردد، فقد تعتمد حياتك على مدى طاعتك.

– أؤكد لك أنني تحت أمرك.

– أولاً سيتوجب عليَّ أنا وصديقي قضاء الليل في غرفتك.

حدقت أنا والآنسة ستونر إليه بذهول.

– نعم، هكذا يجب أن يكون الأمر. سأوضح لكما كل شيء، أظن هذا هو فندق القرية هناك، أليس كذلك؟

– بلى، هذا هو مقهى وفندق كراون.

– جيد جداً، أيمكن رؤية نافذتك من هناك؟

– بالتأكيد.

– يجب أن تلزمي غرفتك وتدعي إصابتك بالصداع عندما يعود زوج أمك، وبعد ذلك حين تسمعينه يأوي إلى فراشة يجب أن تفتحي مصراعي نافذتك، ثم ضعي مصباحك هناك إشارة لنا وانسحبي بهدوء ومعك كل ما يمكن أن تحتاجيه إلى الغرفة التي اعتدت الإقامة فيها. لا شك في أنك لن تعجزي عن قضاء ليلة واحدة فيها رغم الإصلاحات.

– آه، نعم، بسهولة.

– واتركي الباقي علينا.

– ولكن ماذا ستفعلان؟

– سنقضي الليلة في غرفتك لنتحقق من هذه الضوضاء التي تزعجك.

قالت الآنسة ستونر وهي تنظر إلى رفيقي بأمل:

أظن أنك توصلت إلى شيء بالفعل يا سيد هولمز؟

– ربما.

– أرجو أن تخبرني بسبب وفاة شقيقتي إذن.

– أفضل أن تكون معي أدلة أوضح قبل أن أتكلم.

– يمكنك على الأقل أن تخبرني إذا كان ما أظنه صحيحاً، فهل ماتت من الخوف المفاجئ؟

– لا، لا أعتقد ذلك؛ بل أظن أن السبب أكثر واقعية. والآن يا آنسة ستونر يجب أن نغادر؛ فلو عاد الدكتور رويلوت ورآنا ستذهب رحلتنا هباء. إلى اللقاء، تشجعي وتأكدي من أنك لو نفذت ما قلته لك

فسوف نخلصك قريباً من الأخطار التي تتهددك.

لم أجد أنا وهولمز أية صعوبة في استئجار غرفة نوم وغرفة جلوس في فندق كراون، وكانت الغرفتان في الدور العلوي، واستطعنا من خلال النافذة أن نرى بوابة الشارع والجناح المأهول من قصر ستوك موران، ورأينا الدكتور رويلوت وهو يصل في أول الليل وبنيته الضخمة تلوح عن بعد بجانب الجسم الضئيل للصبي الذي كان يقود العربة، وقد واجه الصبي بعض الصعوبة في فتح البوابة الحديدية الثقيلة، فسمعنا صوت الدكتور الهادر الأجش ورأينا غضبه الشديد وهو يهز قبضتيه في وجهه.

ثم تقدمت العربة، وبعد دقائق قليلة ظهر ضوء من بين الأشجار عندما أشعل مصباحاً في إحدى غرف الجلوس.

قال هولمز ونحن جالسان في الظلام المتزايد:

أتعرف يا واطسون؟

إنني متردد بعض الشيء في أخذك معي الليلة؛ ففي هذه القضية قدر كبير من الخطر.

– هل سأتمكن من مساعدتك؟

– إن وجودك قد لا يقدر بثمن.

– إذن سآتي بالتأكيد.

– هذا لطف شديد منك.

– أتتحدث عن الخطر؟

من الواضح أنك رأيت في تلك الغرف أكثر مما رأيت أنا.

– لا، ولكن أعتقد أنني استنتجت أكثر قليلاً، وأتصور أنك رأيت كل ما رأيته.

– لم أر شيئاً يستحق الذكر سوى حبل الجرس، وأعترف بأنني لم أستطع استنتاج الغرض الذي يؤديه.

– أرأيت فتحة التهوية؟

– نعم، ولكن ليس من غير المعتاد أن تكون هناك فتحة صغيرة بين غرفتين، كما أنها صغيرة جداً لدرجة أنها بالكاد تتسع لفأر.

– كنت أعرف أننا سنجد فتحة التهوية قبل أن نأتي إلى ستوك موران.

– ماذا؟!

– نعم، لقد عرفت ذلك. أتذكر أنها قالت في إفادتها إن أختها استطاعت أن تشم رائحة تبغ الدكتور رويلوت؟

بالطبع هذا يوحي بضرورة وجود اتصال بين الغرفتين، ولا بد أن يكون اتصالاً صغيراً وغلا لورد في تحقيق قاضي الوفيات، ومن هنا استنتجت أنها فتحة للتهوية.

– ولكن ما الضرر الممكن في ذلك؟

– حسناً، لدينا على الأقل مصادفة مثيرة للفضول بالنسبة للتواريخ، فهناك تزامن بين فتحة التهوية التي وضعت والحبل المزيف الذي تم تعليقه وبين موت السيدة التي تنام في نفس السرير.

ألا يلفت هذا نظرك؟

– لا أستطيع رؤية الصلة حتى الآن؟

– ألا حظت شيئاً غريباً بخصوص السرير؟ لا.

– لقد كان مثبتاً إلى الأرض. هل سبق لك أن رأيت سريراً مثبتاً بهذا الشكل من قبل؟

– لا أستطيع القول بأنني رأيت مثل ذلك.

– إن السيدة لا تستطيع تحريك سريرها، فيجب أن يبقى دائماً في نفس الموقع بالنسبة لفتحة التهوية وللحبل (كما يمكننا أن ندعوه، بما أنه لم يكن حبل جرس قط).

صحت قائلاً:

هولمز، أظن أنني بدأت أفهم ما ترمي إليه؛ فنحن في الوقت المناسب تماماً لنمنع جريمة ماكرة مروعة!

– إنها جريمة ماكرة ومروعة جداً، فعندما يتجه طبيب إلى طريق الشر يكون من أفضل المجرمين؛ فهو يمتلك المعرفة وقوة الأعصاب. ورغم ذلك أعتقد أننا سنهزمه، ولكننا سنواجه ما يكفي من الأهوال قبل أن تنتهي الليلة. دعنا ندخن الغليون بهدوء ونفكر في شيء أكثر بهجة لساعات قليلة.

أطفئ النور الظاهر من بين الأشجار في نحو الساعة التاسعة، ومرت ساعتان ببطء، ثم فجأة وفي تمام الحادية عشرة لمع ضوء وحيد ساطع أمامنا مباشرة، فهب هولمز على قدميه وقال: هذه إشارتنا، إنها

صادرة عن النافذة الوسطى.

تبادل هولمز ونحن في طريق الخروج كلمات قليلة مع مالك الفندق موضحاً له أننا سنذهب في زيارة متأخرة لأحد الأصدقاء، وقال إن من الممكن أن نقضي جزءاً من الليل هناك.

وبعد لحظة كنا في الخارج في الطريق المظلم، تهب علينا رياح باردة وضوء أصفر يومض أمامنا وسط الظلمة ليرشدنا في مهمتنا الغامضة.

لم نواجه صعوبة كبيرة في الدخول إلى الحديقة لأن الثغرات غير المرممة كانت كثيرة في جدارها، وبعد أن مشينا وسط الأشجار وصلنا إلى المرج العشبي، ثم عبرناه، وكنا على وشك الدخول من النافذة عندما اندفع من بين شجيرات الغار ما بدا كطفل مشوه بشع ورمى بنفسه على العشب وأخذ يتلوى، ثم جرى بسرعة على المرج واختفى في الظلام.

همست قائلاً:

يا إلهي!

هل رأيته؟

جفل هولمز للحطة مثلي وأطبق بيده على معصمي في انفعال، ثم انفجر في الضحك بصوت منخفض ووضع شفتيه على أذني وغمغم قائلاً:

إنها عائلة لطيفة..... هذا هو القرد.

كنت قد نسيت الحيوانات الغريبة التي يميل إليها الدكتور. وهناك فهد أيضاً، وقد نجده، وقد يقفز على أكتافنا في أية لحظة!

وأعترف أن بالي اطمأن عندما وجدت نفسي داخل غرفة النوم بعد أن حذوت حذو هولمز وخلعت حذائي، وأغلق رفيقي مصراع النافذة بهدوء ونقل المصباح إلى الطاولة، ثم جال بعينيه في الغرفة التي كان كل شيء فيها كما رأيناه في ضوء النهار، ثم تسلل إلى جانبي ووضع يده على أذني وهي على شكل بوق وهمس ثانية ببطء شديد حتى إنني بذلت جهداً كبيراً حتى أستطيع تمييز الكلمات: أقل صوت يمكن أن يدمر خططنا.

فأومأت لأوضح أنني قد سمعته.

- يجب أن نجلس بلا ضوء وإلا رآنا من خلال فتحة التهوية.

فأومأت ثانية. إياك والنعاس، فحياتك تعتمد على يقظتك. احتفظ بمسدسك جاهزاً فقد نحتاجه. سأجلس أنا على أحد جوانب السرير وأنت على ذلك الكرسي.

أخرجت مسدسي ووضعته على ركن الطاولة، وكان هولمز قد أحضر عصا رفيعة طويلة فوضعها على السرير بجانبه ووضع بجانبها علبة من الكبريت وشمعة صغيرة، وبعد ذلك أطفأ المصباح وجلسنا في الظلام.

لن أتمكن أبداً من نسيان تلك الليلة الرهيبة، فقد ساد صمت تام، ومع ذلك فقد عرفت أن رفيقي يجلس في يقظة تامة على مقربة مني ويشعر بالقدر نفسه من التوتر العصبي الذي أشعر به، وبما أن إغلاق المصراع قد قطع عنا كل الضوء فقد جلسنا في ظلام دامس.

وصلتنا من الخارج صيحات طائر ليلي من حين إلى آخر، وفي إحدى المرات سمعنا عند نافذتنا تماماً صوت مواء طويل مما أكد لنا أن الفهد طليق، بالإضافة إلى صوت بعيد أجوف لجرس ساعة الكنيسة التي كانت تدق كل ربع ساعة.

وكم بدا الوقت طويلاً بين كل دقة والأخرى... دقت الساعة الثانية عشرة، ثم الواحدة، وبعدها الثانية والثالثة، وما زلنا جالسين ننتظر بصمت ما سوف يحدث.

وفجأة ومض ضوء للحظة واختفى في الناحية الأخرى من فتحة التهوية، وتبعته رائحة وقود محترق ومعدن مسخن؛ لقد أشعل شخص مصباحاً في الغرفة المجاورة.

ثم سمعت صوتاً منخفضاً لحركة خفيفة، وبعد ذلك ساد الصمت مرة أخرى بالرغم من أن الرائحة ازدادت قوة.

وقد جلست منصتاً لنصف ساعة، وبعد ذلك صدر فجأة صوت آخر منخفض جداً، صوت كصوت تسرب دفق صغير من البخار من إحدى الغلايات، وفي اللحظة التي سمعنا فيها هذا الصوت هب هولمز من السرير وأشعل عود كبريت واندفع يضرب حبل الجرس بعصاه بعنف وصاح قائلاً: أرأيته يا واطسون؟

أرأيته؟

ولكنني لم أر شيئاً. وفي اللحظة التي أشعل فيها هولمز المصباح

سمعت صفارة واضحة منخفضة، ولكن الوهج المفاجئ ومض في عيني المتعبتين وجعل من المستحيل عليَّ أن أعرف ما الذي كان صديقي يضربه بهذا العنف، ولكنني استطعت- على أية حال- أن أرى أن وجهه كان شديد الشحوب ويملؤه الرعب والاشمئزار.

كان قد توقف عن الضرب وأخذ يحملق في فتحة التهوية عندما اخترق صمت الليل فجأة أكثر الصرخات فظاعة، وأخذ صوت الصرخة يعلو أكثر وأكثر، صيحة متحشرجة يمتزج فيها الألم والخوف والغضب معاً في صرخة واحدة مفزعة!

وقد قيل بعد ذلك إن الصوت وصل بعيداً إلى القرية حتى بيت القسيس البعيد، فهب النائمون من أسرتهم!

أما أنا فقد ارتجف قلبي ووقفت أحدق إلى هولمز وهو يحدق إليَّ حتى تلاشت أصداء الصرخة ليسود الصمت مرة أخرى، فشهقت قائلاً: ماذا يعني ذلك؟!

فأجاب هولمز: يعني أن كل شيء قد انتهى، وربما كان ذلك بأفضل شكل ممكن. أحضر مسدسك وسندخل إلى غرفة الدكتور رويلوت.

أشعل هولمز المصباح بوجه متجهم وقاد الطريق عبر الرواق، ودق مرتين على باب الغرفة دون أي رد من الداخل، ثم أدار المقبض ودخل وأنا في أعقابه والمسدس في يدي.

كان المنظر الذي رأيته غريباً، فقد كان على الطاولة مصباح داكن غطاؤه نصف مفتوح يلقي بشعاع ضوء لامع على الخزنة الحديدية التي كان بابها نصف مفتوح، وقد جلس الدكتور غريمسباي رويلوت على كرسي خشبي بجانب هذه الطاولة مرتدياً رداء منزلياً طويلاً رمادي اللون يبرز منه كاحلاه وفي قدميه خف أحمر اللون، ورأيت في حضنه السوط الطويل ذا العقب القصير الذي لاحظناه خلال النهار، وكان وجهه مرفوعاً إلى الأعلى وقد ثبتت عيناه في حملقة جامدة فزعة إلى زاوية السقف، وفوق حاجبيه عصابة صفراء غريبة فيها نقط بنية بدا أنها مربوطة بشدة حول رأسه، وحين دخلنا لم يصدر منه لا صوت ولا حركة.

همس هولمز قائلاً:

العصابة... العصابة المرقطة.

فخطوت خطوة إلى الأمام، وفي لحظة بدأت عصابة الرأس الغريبة بالحركة، فقد شب من وسط شعر الرجل رأس ضخم ورقبة منتفخة لأفعى مقززة.

صاح هولمز:

إنها أفعى المستنقع، وهي أخطر الأفاعي التي تعيش في الهند. لقد قتلته لدغتها في أقل من عشر ثوان!

الشر يرتد على الشرير، ومدبر المكائد يقع في الحفرة التي يحفرها للآخرين.

فلنعد هذا المخلوق إلى عرينه، وعندها يمكننا أن ننقل الآنسة ستونر إلى مكان آمن ونخبر شرطة المقاطعة بما حدث.

وبينما كان يتكلم سحب السوط من حضن القتيل بسرعة وألقى بالأنشوطة حول رقبة الأفعى الزاحفة فسحبها من مقعدها المروع ورماها في الخزنة الحديدية وأغلق الباب عليها.

هذه هي الوقائع الحقيقية لحادثة وفاة الدكتور غريمسباي، ومن غير الضروري أن أطيل القصة (التي طالت جداً بالفعل) بسرد

الأسلوب الذي نقلنا به الخبر إلى الفتاة المروعة، وكيف أوصلناها في قطار الصباح إلى هارو لنضعها في رعاية خالتها الطيبة، وكيف انتهت جلسة التحقيق الرسمية البطيئة إلى أن الطبيب قد لقي مصيره بينما كان يلعب بحماقة مع حيوان خطير.

وما تبقى من تفصيلات القضية أخبرني به هولمز حين كنا عائدين في اليوم التالي.

قال هولمز:

كنت قد توصلت إلى استنتاج خاطئ كلياً، مما يدل- يا عزيزي واطسون- على أن من الخطر القيام بالتحليل المنطقي انطلاقاً من بيانات غير كافية، فكلمة (عصابة) التي استخدمتها الفتاة المسكينة وهي تحاول تفسير المنظر الذي لمحته في ضوء شعلة عود الكبريت كانت كافية لوضعي على الطريق الخطأ.

كما تعلم فالعصابة كلمة ذات معنيين؛ فهي تعني الجماعة من الناس، لكنها تعني أيضاً ما يعصب به الرأس. الحسنة الوحيدة التي أدعيها لنفسي هي أنني أعدت النظر في موقفي في اللحظة التي أصبح

واضحاً لي فيها أن الخطر الذي هدد شاغلة الغرفة، كائناً ما كان، لم يكن من الممكن أن يدخل من الشباك أو الباب، فاتجه انتباهي سريعاً- كما أشرت إليك من قبل- إلى فتحة التهوية وإلى الحبل الذي يتدلى وصولاً إلى السرير.

وحين اكتشفت أنه مزيف وأن السرير مثبت في الأرض ساورني الشك في أن الحبل قد وضع هناك ليكون بمثابة الجسر لشيء يعبر الفتحة حتى يصل إلى السرير، وقد خطرت على بالي فكرة الأفعى فوراً، وحين ربطت هذه الحقيقة بما عرفناه سابقاً من أمر تزويد الدكتور بحيوانات من الهند شعرت أنني على المسار الصحيح.

إن فكرة استخدام نوع من أنـواع السم الـذي لا يكتشف بالاختبارات الكيماوية كانت من الأفكار التي لا تخطر إلا على بال شخص ماهر وقاس وحاصل على تعليم شرقي، وسوف يحتاج الأمر إلى طبيب شرعي حاد النظر ليستطيع تمييز الثقبين الصغيرين الداكنين حيث قام نابا الأفعى بعملها.

وعند ذلك فكرت في الصفير، فقد كان على الدكتور أن يسترجع الثعبان قبل أن يكشفه ضوء النهار، ولعله قد دربه باستخدام اللبن

الذي رأيناه بحيث يعود إليه عندما يستدعيه. وهكذا فقد دأب على وضع الثعبان في فتحة التهوية في الوقت المناسب كل ليلة، وكان متأكداً من أن الثعبان سوف يزحف على الحبل إلى الأسفل حتى يصل إلى السرير. وقد يلدغ شاغلة السرير وقد لا يلدغها، فربما نجت منه ليلة بعد ليلة لمدة أسبوع، ولكن لا يمكن أن تسقط ضحية له عاجلاً أو آجلاً.

لقد وصلت إلى هذه النتيجة قبل أن أدخل تلك الغرفة، ثم أظهر لي الفحص الذي أجريته على الكرسي أنه اعتاد الوقوف عليه، وهو أمر ضروري إذا أراد الوصول إلى فتحة التهوية.

وكانت مشاهدة الخزنة وصحن الحليب والأنشوطة كافية لتبديد أية شكوك باقية، فالصرير المعدني الذي سمعته الآنسة ستونر كان سببه إغلاق زوج أمها باب الخزنة بسرعة على قاطنها المرعب.

وأنت تعرف الخطوات التي قمت بها بعد ما وضح لي الأمر، فعندما سمعت فحيح ذلك المخلوق- كما سمعته أنت أيضاً بلا شك- أشعلت الضوء وهاجمته على الفور.

– وكانت النتيجة أن الثعبان هرب عائداً عبر فتحة التهوية.

– وبذلك انقلب على سيده في الناحية الأخرى؛ فقد أصابته بعض الضربات من عصاي وأثارت غريزته الدفاعية فانقض على الشخص الأول الذي رآه، وبهذه النتيجة أكون مسؤولاً بشكل غير مباشر عن موت الدكتور غريمسباي رويلوت، لكني لن أزعم أن هذا الأمر يمكن أن يؤرق ضميري في أي يوم من الأيام.

ملقّتْ